الوطنية وتعدد الثقافات الفكر الإسلامي

أ د بن عبدالعزيز ا لي

كلية التربية بالأحساء، جامعة ا لك فيصل،

الأحساء، ا ملكة العربية السعودية

(قدم للنشر ١٤٢٥/١١/٢٩هـ، وقبل للنشر ١٤٢٦/٤/١٧هـ)

ملخص البحث. هل يمكن أن تتعدد الثقافات مع الانتماء إلى وطن واحد ؟ أو بصيغة أخرى: هل يمكن أن يوجد وطن واحد يتعايش على أرضه بوئام ذوو ثقافات متعددة ؟

يحاول هذا البحث أن يجيب عن هذا السؤال من وجهة نظر الفكر الإسلامي متبعاً في ذلك منهج القرآن الكريم في رد ما تنازع فيه المختلفون إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ابتغاء الحق، ومتعاملاً مع هذا الموضوع بشمولية وواقعية وحكمة تنسجم مع عناية الإسلام بوحدة الأمة وتآلف قلوب أفرادها واجتماع كلمتهم، وتحذيره من أن يكون التنازع ـ ومنه التنازع الثقافي ـ سبباً في حصول العداوة والفرقة بينهم.

وقد تناول البحث القضايا التالية: معنى الوطن، مفهوم الوطنية في الفكر الإسلامي، الوطنية والثقافة، وظيفة الثقافة الإسلامية في بناء هوية الوطن الثقافية، الهوية الثقافية وتعدد الثقافات، الثقافة الإسلامية وتعدد الثقافات، تعدد الثقافات داخل الوطن الإسلامي، الثقافة الوطنية والعولمة.

ا قدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد..

تشهد الساحة الثقافية في البلاد الإسلامية اليوم تداخلات فكرية وصراعات مذهبية، وتتعرض لتطورات سياسية واجتماعية، وفي ظل هذه التداخلات المعقدة والتطورات المتلاحقة يطرح السؤال الآتي:

هل يمكن أن تتعدد الثقافات مع الانتماء إلى وطن واحد ؟ أو بصيغة أخرى: هل يمكن أن يوجد وطن واحد يتعايش على أرضه بوئام ذوو ثقافات متعددة ؟.

لهذا السؤال أرضية يقف عليها، والإجابة عليه متأثرة باتجاهات فكرية وعقائدية مختلفة . أما الأرضية فهي واقع المجتمعات الإسلامية الذي تجمعه ثقافة إسلامية عامة، وتفرقه ثقافات متعددة ذات صفة خاصة، وأما الاتجاهات الفكرية والعقائدية فتتنازع الإجابة، وتؤثر عليها تأثيراً ظاهراً.

يحاول هذا البحث أن يجيب عن هذا السؤال من وجهة نظر الفكر الإسلامي متبعا في ذلك منهج القرآن الكريم في رد ما تنازع فيه المختلفون إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ابتغاء الحق، كما قال تعالى: ↓ ▫♦✉♌
←■❐ଓ⑩↖❷♦▫ 🕮↗⇔⌀☒★ ❼✗ ⬃☹↗⬇⇳↖⧫❽🕓◆☪♦✍
♌☽ ⇯✌❑←☙▪❷☏👓✂◆❒ ★✏👓✂ ❼■🖫☽
★✏👓👓📪 ⧫♌❑↖☪👌⬃♦➔✍ ⬃☹↗⬇✡↗📫
🗐 ❖❷⇞⌘☞⌂👓✂ ✈⬀❑◆⓿⬂✆👓✂◆❒
←♊✽○⇳❍❒🕮◆❒ ➤❸⬀❷⌂⌘ ⌂⌨✆🕓♦❶
✍♦🕯▫❒⌀③☒🕑 ↑ [النساء، الآية ٥٩]. ومتعاملاً مع هذا الموضوع بشمولية وواقعية وحكمة تنسجم مع عناية الإسلام بوحدة الأمة وتآلف قلوب أفرادها واجتماع كلمتهم،

وتحذيره من أن يكون التنازع ـ ومنه التنازع الثقافي ـ سبباً في حصول العداوة والفرقة بينهم.

إن موضوع: (الوطنية وتعدد الثقافات) يتصف بالحيوية والإشكالية معاً بحيث مهما درس لا يمكن أن ينتهي عند رؤية يجمع عليها؛ نظرا لما للناحية المنهجية والعقدية والثقافية والتربوية من تأثير في قبول التعددية الثقافية ورفضها؛ بل غاية ما يمكن قوله: أنه موضوع جدير بالاهتمام والعناية، يحتاج إلى مزيد من الدراسة توضح جوانبه، وتعالج إشكالياته المتشعبة.

مع الوطن؟

الوطن في اللغة هو: المنزل الذي يقيم فيه الإنسان، ويتخذه محلاً وسكناً له[١، ج ٦ص ٤٨٦٨]، وقد سماه القرآن الكريم الدار والديار في قوله تعالى: (◆➢◆➚♊❄❸⌖○⌖·✞☺⑥⌖❄➬ ◆↓↑◆❄⑩⚐✞○⌖❁⌖❄➬ ⏲ ☠⑤↑◆♋⌖⑨□✧✞☺⑥⌖❄➬ ◆→⌖☞□❄♋✈⌖●☒✍⑤ ⌖·⑤⊙✠⬋✡➢⇔ ♋❄⌖❄☝❻✡⮝✡&✕➚ ☽⌨▤☎) [العنكبوت، الآية ٣٧] وقوله تعالى: ↓ ⋅⋅ ③◆✡⬃♑⊠✇▤➚✍↓ ✂✎✐✦ ↖◆♊⮞ ✂✐✎⮝♎✐⇦×◆ ⚘⋅☠⬀ ③↖◑⋅⏲✌♎➔□✍➚☠⬀ ×♎❼ ✂✐⚙⑨♎⇦×⚐ □◆⚘⋅⚐⇔ ⑥➚③⬂❷⌘♉↖□✍➚✍ ⑩♎♓♊ ⑩③♎◆⏲❷⌘✍➚☠⬀ ♌□⊞ ✍⋅⚘⊠❸⑩□♎➔⚐⇔ □◆✍➔☽⬂○⬁⮌➚□☑✂☎ ☽♎⚘⋅❸⬀&✎☠⬀ .... ↑ [الممتحنة، الآيــة ٨] وسمته السنة: الوطن والدار في حديث: (هي وطني وداري)[٢، ج ٣ ص ١٧٧].

والموطن: هو مكان مولد الإنسان ومأهله ومنشأه الذي فطر على حب القرار فيه[٣، ج ٣ ص ١٢٥٢]والحنين إليه.

والمواطنة لها معنيان:

الأول: معنى فطري غريزي نابع من حب الإنسان لوطنه وشعوره بالانتماء إليه، وحنينه إليه نتيجة لإلف المكان وتذكر مرابع الصبا ومآرب الشباب، كما قال الشاعر ابن الرومي:

وحبب أوطان الرجـــال إليهمُ   مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانــهم ذكَّرتـهـمُ   عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وهو حب وانتماء غريزيان يشترك فيهما الإنسان والحيوان والطائر على حد سواء.

المعنى الآخر: معنى فكري مذهبي؛ هو أعمق من أن تكون المواطنة مجرد نزعة شعورية، وميلاً فطرياً طبيعياً إلى المكان الذي ولد فيه الإنسان، ونشأ على أرضه؛ إذ حولت المذهبية الفلسفية المواطنة إلى نزعة فكرية مذهبية، لها مبادئها العامة، وطقوسها السلوكية، تُزرع في نفوس الناس، ويُنشأ عليها ناشئة المجتمع، وتُحاكِم مواقف أتباعها عليها، ويُنظر إلى الآخرين من خلالها [٤ ، ص ١٧٢].

تاريخ الوطنية الفكر الإنسا

الوطنية من المفاهيم الحديثة التي فرضت نفسها على خريطة الفكر الإنساني؛ وإن كانت ذات جذور عميقة في التاريخ؛ فهي بهذه الصفة الفلسفية عرفت في المجتمعات القديمة، ومن أشهر صورها وطنية اليونان التي كانت تقسم المجتمع إلى أحرار وعبيد، وتمايز بينهم في الحقوق والواجبات، ثم وطنية الإمبراطورية الرومانية التي كانت تنظر إلى الشعوب الأخرى المنضوية إليها بصفتهم عبيدا تابعين للوطن الأم، فلا تقبل من هؤلاء الأتباع الانصهار في بوتقته والاندماج به، وظهرت هذه النزعة من جديد مقترنة بقوميات محلية في أوروبا بعد الثورة الفرنسية لتحل محل النزعة الدينية المسيحية تدريجياً، وأصبحت

من معطيات القرن التاسع عشر الميلادي الموجهة لكل نظم الدولة نحو خدمة هذه النزعة المذهبية [٥ ، ص ٤٧] .

لقد استطاعت هذه النزعة أن تقسم أوروبا إلى إمارات شعبية متصارعة، كل إمارة تكرس النظرة الوطنية للأشياء والآخرين، وتعمل على تحويل القيم العامة إلى قيم وطنية خاصة، مما أدى إلى تدهور العلاقات بين هذه الدول، وتأجيج الحروب بينها لسنوات طويلة، وتوريث الخراب والدمار للأجيال كما قال الفيلسوف البريطاني برتراند رسلBertrand Russel في الوطنيين الألمان: (يخيل إليهم أن مصالح ألمانيا هي وحدها المصالح الجديرة بالاعتبار دون أن ينازعهم في ذلك منازع، وليس من شأنهم هم ـ مادام همهم هو هذه المصالح ـ أن يفكروا فيما يصيب الأمم الأخرى من أضرار، ولا فيما تجره هذه السياسة من تخريب للمدن، ودمار للأهالي، ولا ما يلحق بالحضارة من تلف لا يمكن إصلاحه) وكلامه هنا عن ألمانيا النازية التي تبنت نزعة الوطنية، ومقولة: إن ألمانيا وحدها القادرة على قيادة العالم [٥ ، ص ٥٠]، وما إن وضعت الحروب التي تأججت بين دول أوروبا أوزارها إلا وظهر التنافس من جديد بينها على استعمار الأمم الأخرى، وبعد انحسار موجة الاستعمار أدركت هذه الدول الآثار الوخيمة للوطنيات المتعصبة ؛ فبدأت بالانسلاخ منها، والتقارب فيما بينها في مشاريع عرفت بمشاريع الوحدة الأوربية [٤ ، ص ١٧٣ـ١٧٥] .

وفي العالم الإسلامي وجد المعجبون بالثقافة الغربية في نزعة الوطنية التي راجت في أوروبا فكرة تجمع الناس في كل قطر من أقطار المسلمين حول المطالبة بحقوقهم، ودعوة إلى الحرية تخلصهم من الظلم الذي عانوا منه، وعملت الدول الاستعمارية على إعلاء شأن هذه الفكرة عن طريق إثارة الخلافات البائدة بين الشعوب الإسلامية، والنعرات القومية، والتركيز على الملامح الطبيعية التي يختلف فيها كل قطر عن الآخر، وخلق روح

الإقليمية المحلية[٦ ، ص ٣٦٧]ـ بغرض تمزيق المجتمعات الإسلامية ، وفصلها عن بعض للحيلولة دون وحدتها في كيان واحد وفكر واحد وتطلعات مشتركة ، فقد جاء في تقرير وزير المستعمرات البريطاني (أورم سبي غز) لرئيس حكومته بتاريخ ٩ يناير عام ١٩٣٨م : (إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه ، وليس الإمبراطورية وحدها ؛ بل فرنسا أيضاً ، ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة ، وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة. إن سياستنا تهدف دائما إلى منع الوحدة الإسلامية ، والتضامن الإسلامي ، وينبغي أن تكون كذلك...)[٧ ، ص ١٢]

ثم تطورت هذه الفكرة في البلاد الإسلامية على أيدي المتأثرين بالثقافة الأوربية الذين حولوا الوطنية إلى قومية ، وهاجموا الرابطة الدينية ، واعتبروها خطراً يهدد وحدة الأقطار الإسلامية ، ويفرق كلمتها ، ويهدم تعاطفها ، ويضعف تكتلها[٨ ، ج ١ ص ٧٨].

وعلى الرغم من غتامة تاريخ الوطنية بمعناها المذهبي وما أدت إليه من صراع اكتوت بلهيب ناره الشعوب ـ فإن المعنى الفطري للوطنية يظل المعنى الحاضر في نفس الإنسان الذي لا يغيب عن مشاعره لحظة من اللحظات ، ويستولي على كل أحاسيسه وآماله ومشاعره .

الوطنية الفكر الإسلامي

إذا كان الاتجاه المذهبي عمل على ربط معنى الوطنية بالأرض والوطن فإن الإسلام لا يتنكر لفطرة حب الوطن ، ولا يعده مناقضا له ، فقد صدق مصطفى كامل وهو من الوطنيين المصريين في قوله : (قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية ، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء ، ولكني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقاً) [٨ ، ج ١

ص ٨٢]، ذلك أن الإسلام نظر إليه على أنه ميل فطري راسخ في النفس، فنماه ، ولم يقيده بمضامين أي نزعة من النزعات ذات المنحى العنصري، بل ربط بينه وبين الدين، وعمل على إدماج البشرية بعضهم ببعض دون تمييز على أساس الحدود الجغرافية ؛ فمد بذلك مفهوم الوطن على امتداد العقيدة، ووسع مفهوم الوطنية لتكون انتماءً فطرياً إلى الأرض، وموالاة دينية لعقيدة الإسلام ومبادئه وقيمه.

إن انسجام الدين والوطنية وامتزاجهما معاً، بحيث تكون الوطنية متشربة للإسلام، ويكون الوطن داراً له ــ هو الذي جعل للوطنية هذا المعنى الواسع الذي يتجاوز الحدود الإقليمية والمعنى المحصور في الأرض ليرقى به من الأرض والموقع الجغرافي إلى القيمة والمكانة والحرمة ، ويقرنه بالمبادئ والقيم التي يؤمن بها من يقيم على هذا الوطن، لقد أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المعنى في خطابه لمكة، وهو مهاجر منها: (ما أطيبك من بلد، وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك) [٩، ج ٥ ص ٧٢٣] إن هذا المعنى يجلي موقف الفطرة في محبته صلى الله عليه وسلم لبلده مكة معللاً هجرته منه رغم تعلقه به ومحبته له ـ بإخراج كفار قريش له ومنعهم إياه من إقامة مبادئ الإسلام فيه .

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد ضحى بالبقاء في وطنه في سبيل مبادئه وقيمه التي حال بينه وبينها كفار قريش حينما ساوموه عليها ـ فإن ذلك كان في حال من التخيير بين المضي في الدعوة إلى الإسلام مع الهجرة عن الوطن، أو التخلي عنها مع البقاء في الوطن، و حال من التضاد بين إعطاء الأولوية للإسلام، أو التنعم بالسكنى في الوطن والعيش بين الأهل والعشيرة؛ لذا قدم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم في حدث الهجرة الدين على غيره؛ وقد أكد القرآن الكريم استحقاق الدين هذه الأولوية في قوله تعالى: ↓ ♎➔♐⬀ ♌♐♌ ♌♒☒♎♌♦
⬈♦✂♌♦✍⬈♦♐⬈☠⬀ ❐♦🕮❐♌⬀✡❐✍✎♦⬈🗎➔☠⬀

[illegible] [التوبة، الآية ٢٤]

ولا يعني بحال أن الإسلام يغير انتماء الناس إلى أرضهم وشعوبهم وقبائلهم؛ فإن هذا أمر مادي حسي واقع لا سبيل إلى تغييره، فالذي يولد في بلد ينسب إليه، ولا ينكر عليه محبته له؛ فإن بلالاً رضي الله عنه الذي هاجر إلى المدينة مضحياً بكل شيءٍ في سبيل عقيدته هو الذي كان يهتف في دار الهجرة بالحنين إلى بلده مكة في أبيات تمتلئ رقة، وتقطر حلاوة، ينشد رضي الله عنه، فيقول:

وهل أردن يوماً مياه مجنت   وهل يبدون لي شامة وطفيل

وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف مكة من: (أصيل) فجرى دمعه حنيناً إليها، وقال: (يا أصيل دع القلوب تقر)[١٠، ج ١ ص ٨٤]، لقد أقر الإسلام هذا الانتماء، ولم ير حب الوطن منافياً للإيمان، ولا ملازماً لـه، فقد دل قولـه تعالى:

[illegible] [النساء الآية

٦٦] ، دلت هذه الآية على حب هؤلاء لوطنهم مع عدم تلبسهم للإيمان [١١ ، ج ١ ص ٤١٤]، كما أن الإسلام لم يجعل الأرض ولا الدم ولا اللغة ولا المصالح الصلة الأولى التي تجمع الناس، ولم يقدمها على صلة العقيدة الصحيحة[١٢ ، ص ٥٨٦] ؛ فإذا اتسقت دوائر الانتماء في فكر الإنسان، وتكاملت الحياة في ممارستها، ولم تكن متعارضة مع الانتماء إلى العقيدة فلن يكون هناك تناقض في الفكر، ولن يكون هناك مانع من العمل بكل دوائر الانتماء الفطري للإنسان ؛ إن الأمر في علاقة الانتماء إلى الإسلام بالانتماء إلى الوطن ليتعدى حدود نفي التناقض إلى دائرة الامتزاج والترابط والاعتراف بما هو فطري؛ فالإسلام دين لا تتأتى إقامته إلا في وطن ومكان وجغرافيا، وهذا الواقع والمكان والجغرافيا لن يكون دار إسلام إلا إذا أصبح الانتماء إليه بعداً من أبعاد الانتماء الإسلامي العام، ومن هنا تأتي ضرورة الوطن لإقامة الدين[١٣ ، ص ٣٥] كما قال تعالى: ↓ ✂✍♦×⇦ ♌ ☼ ✌□▤⅄✡□⏲♑←☠⬀
✖☜❼ ✂☺❀☛❻⬀⬅ ☎✂□↖✌♦□📖
✂☺⏲○■□■□📄□■ ☎✂↓□♦✍✂♦↗♦□
✂☺❽□▤•□📄□■ ☎✂□↖❷♦✌□📖♦□
✂☺☺⦸☺□☑→↗❷↖□☺⇖ ☎✂⬀□☑♑♦☼♦□
↖♦♊⬅ ✂☺⦸☺←☪▤♦❷⊠ ▤ □♦✍✶ ↖♦⏲☽☜⌛♦□→
✂☺❀⌖✌↖□❻⌀↑ [الحج، الآية ١٤١]' ويتقرر حق المسلم فطرياً ودينياً في أن يعلن محبته لوطنه، وانتماءه إليه، وتفضيله على غيره في السكنى والإقامة به، وحب الخير له ونصرته دون عصبية تقطع آصرة أخوة الدين، أو تشغل عن الاهتمام بباقي أجزاء الوطن الإسلامي (فوطن المسلم ليس له حدود جغرافية ؛ فهو يمتد مع امتداد العقيدة) [١٤ ، ص ١٤١]، وانتشارها في بقاع الأرض؛ إذ لا تعارض بين حب الوطن والانتماء إلى الأمة الإسلامية، فبوسع الإنسان أن يحب وطنه، ويحب إخوانه المسلمين في الأقطار الأخرى، فكما أن حب الوطن لا يناقض حب الأسرة ؛ بل يكون متمماً لها،

كذلك حب الوطن لا يناقض حب المسلمين أينما كانوا بل يكون متمماً له[١٥ ، ص ٣١] أيضاً.

كما أن الإسلام جعل الوطنية حقاً من حقوق الشعوب، والمحافظة عليه حياة لها بين الأمم، فلا معنى لحياة أمة وهي تفقد حق استقلالها في أرضها وبلادها، وتعيش تحت هيمنة عدوها وحكمه ؛ فتلك أمة ميتة وإن كانت في حكم الأحياء، يقول الأستاذ محمد عبده في هذا المعنى: (تلك سنة الله تعالى في الأمم التي تجبن فلا تدفع العادين عليها، وحياة الأمم وموتها في عرف الناس جميعهم معروف؛ فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكل ما بقي من أفراده خاضعين للغالبين ضائعين فيهم، مدعمين في غمارهم، لا وجود لهم في أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم، ومعنى حياتهم عودة الاستقلال إليهم. إن الجبن عن مدافعة الأعداء وتسليم الديار بالهزيمة والفرار هو الموت المحفوف بالخزي والعار، وإن الحياة العزيزة الطيبة هي الحياة المِلّية المحفوظة من عدوان المعتدين، والقتال في سبيل الله أعم من القتال لأجل الدين؛ لأنه يشمل أيضاً الدفاع عن الحوزة إذا هم الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا، أو أراد العدو الباغي إذلالنا والعدوان على استقلالنا، ولو لم يكن ذلك لأجل فتنتنا عن ديننا، فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق، كله جهاد في سبيل الله.. ولقد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين)، [١٦ ، ج ٤ ، ص ٦٩٥ ـ ٦٩٧].

الوطنية في المملكة العربية السعودية

تمثل الوطنية في المملكة العربية السعودية المعنى المنسجم مع الفطرة والإسلام ؛ إذ يعني مفهوم الانتماء إلى المملكة العربية السعودية معاني وقيماً عظيمة ، تتمثل في :

١- الموقع الذي اختاره الله تعالى ليكون مهبط الوحي ، ومعقل الإسلام ، وقلعته العتيدة ، وحصنه المنيع ، ومخزن قيمه الحضارية وأصالته الفكرية ، ومأوى أفئدة المسلمين ، ومقصدهم في صلاتهم وأداء نسكهم ، وجعل أرضه مسكناً خالصاً لإقامة المسلمين وحـــدهم إلى قيـــام الســـاعة ، قال تعالى : ↓ ✂✍✏✦ 🕮❒⇖⇳🖬■☠⇖ ❍⌺⓿⬂❅← ⑥⧫♑⬂➔⌺✍⇖ ❻✎♉⌺✍☎⧫☝⧫❍← ⓵ ↑ [الأنعام ، ١٢٤]، وقال صلى الله عليه وسلم : (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً) [١٧ ، ج ٣ ، ص ١٣٨٨]، أي لا يدع كتابياً يقيم فيها إقامة دائمة ؛ بحيث لا يمكن فهم هذا الموقع إلا أنه أرض الإسلام والمسلمين.

٢- الإسلام الذي جعل الله هذه الجزيرة داراً له ، ومأرزاً لأتباعه ، يقيمون على أرضه شعائره ، ويحتكمون في أمورهم إلى شرعه ، ويعملون بما ينطوي عليه من مبادئ وقيم وتشريعات ، وقد ختم الله به الدين ، ونسخ به الرسالات السابقة ، فلم يقبل غيره ديناً ، قال تعالى : ↓ ❒⧫✌⧫♊ ③⧫▭⬀☝⧫⬀➦ ➘⌧❷⬀❸⧫ ✂✍“☼❸✉⇔🖬■✇☠⬂⑩♎③✡✡✍ ♊🖬■⧫▫ ③⇖☽⬂⌛⧫✍• ✌♎✡⬀❍← ❒⧫⬄➔❒⧫ ❼♐× ✂✍⌺☞⌘⬁❷⧫❐✎ ✌♎♊⌘ ✂✍♉⬂②⌺✇❍⬁❷⌧③♊⌘ ↑ [آل عمران ، الآية ٨٥]، فنالت هذه الجزيرة به مكانتها ، وتميزت به شخصيتها ، واستشعر أهلها به واجبهم ، وارتبطوا به في مناهج حياتهم.

هذا المعنى تجسد في المملكة العربية السعودية ؛ إذ تمتزج به هذه الدولة ومنذ تأسيسها بالدين واقعاً ومسؤولية ، ولا غرابة ؛ فهي من حيث الواقع الدولة المؤتمنة على الحرمين الشريفين ، والراعية لحجاج بيت الله الحرام وزوار مسجد الرسول صلى الله عليه

وسلم، والعاملة على نشر الإسلام من خلال مؤسسات الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمقيمة لأحكام الشريعة والمنفذة لحدود الله تعالى من خلال المحاكم الشرعية ذات السلطة المستقلة التي لا سلطة عليها غير سلطان الشريعة، وهي الملتزمة في جميع المجالات بالإسلام، نصت المادة الأولى للنظام الأساسي للحكم فيها على أن (المملكة العربية السعودية دولة عربية إسلامية ذات سيادة تامة، دينها الإسلام، ودستورها كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولغتها هي اللغة العربية)، وقد مارست الدولة هذه الوظيفة في أدوارها الثلاثة منذ تأسيسها على يدي الإمامين محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب، فهي نتاج دعوة إصلاحية عم خيرها أرجاء الجزيرة العربية، وتفيأ ظلالها جميع أبنائها، وقطفوا ثمرتها وحدة، وأمناً، ومعتقداً صافياً، ورخاء واسعاً، وعلماً منتشراً.

إن مفهوم المواطنة يعني الالتزام بمعنى الانتماء إلى هذا الوطن المملكة العربية السعودية الذي يقتضي حماية أرضه، والنهوض برسالته التي هي رسالة الإسلام، والجهاد في سبيل الحفاظ على حرماته ومقدساته، والذب عن منجزاته الحضارية بشقيها المعنوية والمادية.

إننا في الوقت الحاضر وأكثر مما مضى بحاجة ملحة إلى تعميق هذا المفهوم في عقول الناشئة ؛ بعد أن تسللت بعض الأفكار والآراء الغريبة على بيئة هذا الوطن المسلم، وفوجئ أبناؤه بالأحداث الدامية التي استهدفت المواطنين الآمنين والمقيمين المستأمنين، ولعل من أفضل الوسائل التي تعمق هذا المفهوم ما يلي:

١- مناهج التعليم التي يمكن أن تؤصل معنى الوطن، وتبرز مكانته في العالم وفي العالم الإسلامي بصفة خاصة، وتتحدث عن خصائصه وواجباته، ومواقفه الحميدة من القضايا الإسلامية كقضية فلسطين والبوسنة والهرسك، ودور المؤسسات الخيرية في

إغاثة المنكوبين والمعوزين في العالم الإسلامي، ودعمه للمؤسسات الإسلامية العالمية كمنظمة المؤتمر الإسلامي ورابطة العالم الإسلامي والبنك الإسلامي.

٢- الإعلام من صحافة وتلفاز وإذاعة الذي يمكن استثماره في إظهار الصورة الحقيقية للمملكة العربية السعودية، ودورها الرائد في المحافظة على قيم الإسلام ومبادئه، والدفاع عن قضايا المسلمين في المحافل الدولية، وتسخيرها في ترسيخ هوية هذه البلاد في نفوس أبنائه من خلال الحوار الهادف، والبرنامج الملامس لمشكلات الناس وأحوالهم الاجتماعية، وفي التصدي للأفكار الوافدة المنافية للعقيدة الصحيحة والشريعة السمحة، وفي معالجة حالات الانحراف والغلو التي قد تظهر في المجتمع تأثراً بمجتمعات مجاورة.

الوطنية والثقافة

برزت الوطنية منذ انطلاقتها في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي مقترنة بالقيم الليبرالية أو الحرية الفردية والديمقراطية، وتعتبر فرنسا أنصع مثال على هذا التلازم في أوروبا الحديثة؛ إذ تبنى الفرنسيون الوطنيون فكرة الدفاع عن ثقافتهم الوطنية مع ولائهم للدولة الفرنسية، كما تعد تركيا من أبرز الدول في العالم الإسلامي اهتماماً بتطوير ثقافتها الوطنية من خلال العمل على الانفصال عن العرب في الحروف الأبجدية واللباس والتعليم والعادات والتقاليد [١٨، ص ٢٠ ـ ٢٦].

وفي العالم العربي ظهرت الوطنية مقرونة بمشروع الدعوة إلى الوحدة العربية الذي كان من أهدافه مقاومة الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية، وتم التسويق لهذا المشروع عن طريق بناء ثقافة وطنية جديدة على المنحى القومي للثقافة السياسة الغربية المتجه إلى فصل الدين عن الدولة، وكانت ردة الفعل الأولى عليه من المفكرين الإسلاميين بإعلان التمسك بفكرة الخلافة الإسلامية، والتنادي إلى مشروع إعادتها من جديد؛ مما أدى إلى

تبلور اتجاه فكري مناهض لفكرة الوطنية العربية، يدعو إلى حماية الهوية الإسلامية، والدفاع عنها في وجه العدوان الثقافي الغربي [١٩، ص ٣٤ ـ ٣٧] الذي كان يسعى إلى تحجيمها، وإلى تحرير الوطن الإسلامي من الاستعمار الجاثم على أرضه، وتوحيد شعوبه على أساس العقيدة والمبادئ الإسلامية.

وحقيقة الأمر أن الدعوة إلى الوطنية كانت مرحلة أولى منحصرة في مفهوم الاستعلاء بالأرض والتاريخ الإقليمي، فلما أخفقت هذه الدعوة ظهرت الدعوة إلى الإقليمية العربية التي كانت على نسق الطورانية في تركيا والفرعونية في مصر والفينيقية في سوريا، وقد ساهمت هذه الدعوة على تمزيق الأمة الإسلامية وفرقتها، ولقد كان للنفوذ الاستعماري داخل العالم الإسلامي أثر قوي في تفريغ مفهوم الوطنية ثم القومية من قيمته الحقيقية، وفصله عن تراث الأمة وثقافتها العامة، ولا ريب أن هذا المفهوم دخيل عليها ؛ إذ أنها كانت تعتبر وحدة الفكر أو وحدة الثقافة أساساً لترابط شعوبها وتماسكهم [٢٠، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦].

إن الاختلاف في مفهوم المواطنة بين القوميين والإسلاميين نشأ عنه تباين في الثقافة التي تحدد هوية الوطن وصلته بغيره ؛ إلا أن الفريقين متفقان على أن الوطنية كما قال الأستاذ علي مزروعي: (جمع بين الثقافة كهوية وبين الثقافة كطريقة اتصال) [١٨، ص٢٣] إذ الثقافة عند الفريقين من أخص خصائص الإنسان، فهو مخلوق عاقل ومفكر، وأي انتقاص من ذلك هو انتقاص لبشريته وآدميته، وأي اهتمام بنمو ثقافته هو اهتمام بإنسانيته، والثقافة أيضاً مسألة مهمة للمجتمع الإنساني؛ فهي قوام التواصل بين الشعوب من أجل التعارف وتبادل الخبرات مهما اختلفت أجناسهم ومعتقداتهم، فعن طريقها يتبادل الناس المفاهيم والأفكار والمعتقدات وأساليب الحياة وغير ذلك من نظم وتصورات، وهي أيضاً وسيلة لتمايز الشعوب بعضها عن بعض بفضل السمات التي

تتميز بها كل ثقافة عن الأخرى، مما يكسبها القدرة على الانفتاح على الثقافات الأخرى دون وجل من الاندماج أو الذوبان في الثقافات الأخرى [٢١، ص ٧٤ ـ ٨٤] أي مع القدرة أثناء الممارسة الثقافية على المحافظة على خصوصيات الوطن وأصالته وذاتيته المتمثلة في مبادئه وقيمه ونظمه.

إن المواطنة تعني استثمار ثقافة البيئة التي هي من الناحية العامة: (حصيلة معلومات متنوعة وأساليب في التفكير تتسع وتضيق بحكم ارتباطها بقضايا الإنسان عموماً، وبما يتصل بالذاتية ـ عموماً ـ ومجالات الهوية خصوصاً، فالمواطن المثقف..... هو الشخص الذي يكون واعياً عن طريق حسه الاجتماعي ؛ سواء تعلق الأمر بعصره أم خارج عصره. هذا ـ الوعي ـ هو الجانب الإنساني في الثقافة ؛ أما ما يشعر به ويحياه في هويته وانتسابه الوطني والقومي والروحي فهو الجانب الذاتي في الثقافة) [٢٢، ص ٦].

وفي هذا السياق يصعب جداً تصور ثقافة مجردة ومحايدة، لا ترتبط بخلفيات تاريخية أو مذهبية تشكل مصدر موازينها ومعاييرها ومرجع قيمها، ولذلك فهي كثيراً ما تحمل نعتاً يحدد إطارها وأبعادها ؛ لذا نجدها تنسب إلى دين أو مذهب كالثقافة الإسلامية أو البوذية، أو إلى بلد أو منطقة كالثقافة اليونانية أو الهندية، وتتسع لمضامين ما تنتسب إليه، فالثقافة الإسلامية حينما اتخذت الإسلام رداء لها ـ أصبحت تتسع لكل ما يحويه هذا الانتساب من مضامين باعتبار الإسلام عقيدة وشريعة وفكراً وحضارة ومنظومة قيم [٢٢، ص ٨]، وهكذا كل الثقافات الأخرى .

وإذا كان أي وطن بحاجة إلى تنمية شاملة وهادفة في كل مرافقه تستثمر كل إمكانياته وطاقاته فإن هذه التنمية لا بد أن تكون متلائمة مع ثقافته ومعطياته ومكونات مجتمعه، ومن ذلك على سبيل المثال التنمية في حقل العلوم التطبيقية، هذه العلوم التي تطورت في هذا الزمن بشكل سريع ومذهل، وحاول المهتمون بها في ظل تسارع

معلوماتها وتلاحق نتائجها أن تنمو في معزل عن الثقافات، وبعيداً عن مضامينها مما أدى إلى نوع من الصراع والتناقض داخل المجتمعات، ولعل هذا هو الذي دفع العالم الشهير إيليا بريغوجين Ilya Prigorine إلى القول: إنه أضحى من الملح على العلم أن يعتبر نفسه جزءاً لا يتجزأ من الثقافة التي تطور بين أحضانها. وإلى القول: إن العلم سينفتح على العالمية عندما لا ينعزل عن اهتمامات المجتمع، ويعدل عن اعتبار نفسه مستقلاً ومجرداً عنها، عندها يصبح العلم قادراً على محاورة الناس من جميع الثقافات واحترام تساؤلاتهم. ولعل تجربة العالم الإسلامي من أوضح الشواهد على سوء النتيجة عندما استورد أنماطاً من التنمية لا تتلاءم مع معطيات واقعه، ومكونات مجتمعاته فكانت الحصيلة تقليداً شبه أعمى للحضارة الغربية[٢٣، ص ٢٦]، وتأخراً في كثير من مجالات الحياة.

هوية الوطن الثقافية

لا بد لأي وطن من ثقافة خاصة به ؛ إذ لا يتصور وجود وطن بلا تراث وتاريخ، ومجتمع بلا عقيدة ومبادئ، وأمة بلا نظم وقيم، أو في أقل الأحوال لا يمكن وجود مجتمع بلا دين، يقول هنري برجسون Henri Bergson: (قد نجد في الماضي أو الحاضر مجتمعات بشرية لا تعرف العلم أو الفن أو الفلسفة ولكن ليس ثمة مجتمع بلا دين)[٢٤، ص ٢٥].

يكاد يكون من البدهي التسليم بمساهمة الأديان في جميع المجتمعات في تشكيل ثقافتها، فهي ذات حضور مؤثر في بناء الثقافة لأي مجتمع من المجتمعات مهما كان هذا الدين من الصحة أو البطلان، وما من مجتمع إلا وقد تدين، فالتدين فطرة خلق عليها الإنسان، ينزع إليها ليشبع حاجة الروح إلى الإيمان بالمعبود، ويستمد من هذا الإيمان عقيدته ومفاهيمه للوجود والحياة، ويضبط به أمور حياته، وهو كذلك ضرورة اجتماعية

يتم عن طريقها التأكيد على الإيمان بالقيم والفضائل، والالتزام بالأحكام والقوانين التي تعنى بتنظيم شؤون الحياة.

ويعد الدين في الثقافة الإسلامية بمصادره الصحيحة الأساس الأول الذي تقوم عليه، وتأخذ منه مادتها العلمية والفكرية، وتستمد منه ذاتيتها ووجهتها وتصوراتها وقوام فكرها، وتعتمد عليه في نقد التراث البشري ومواجهة التحديات التي تعترض سبيل المحافظة على شخصيتها من الذوبان في غيرها، وهو العاصم لها من الانحراف عن الطريق السوي، أو الاندثار مع الثقافات الضعيفة التي لم تستطع الصمود أمام متغيرات الحياة، أو الذوبان في غيرها من الثقافات الأخرى.

إن هذه المصادر تشكل دعامة قوية في تأصيل (الفهم الصحيح لكتاب الله عزَّ وجلَّ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والتفقه في الدين، واستيعاب التاريخ الإسلامي، وحل المشكلات المعاصرة للمجتمع الإسلامي من خلال تحكيم شرع الله تبارك وتعالى تحكيماً كاملاً من غير تأويل تمليه الأهواء، أو تحمل عليه نزعة الانهزام الفكري والنفسي أمام التيارات المعادية... ولا تتحقق هذه الأصالة إلا بالإحاطة الشاملة بالإسلام عقيدة وعبادة وتشريعاً وخلقاً) [٢٥، ص ١١ ـ ١١٢].

لقد ارتبطت الثقافة الإسلامية بكلمات الله وحده غير محرفة ولا مبدلة ولا مخلوطة بأوهام البشر وأغلاطهم وانحرافاتهم، فهي تعتمد على كتاب الله الموحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومحصورة فيه، بعيدة كل البعد عن الفكر الفلسفي الإنساني، وكتاب الله مصدر يتسم بالصدق والصحة، قد تكفل الله بحفظه كما قال تعالى: ↓
☽⚡✡✵✍ ✝⬥⬧♊← ✡⬥❽⬜◉⬀⬂☪⬥✍
✂✍✏♁♏⚡✍⬂❷⬥ ⬜⬥☽⚡✡✵✍ ◉⬧⬥❍⬅⓵
💻❍⬥⬜⓵▦⚡→⬀⬜♌⬥ ↑ [الحجر، الآية ٩] وعلى سنة رسول صلى الله عليه وسلم من أقواله وأفعاله وتقريراته، وقد قيض الله من يميز صحيحها من ضعيفها،

ويبين ما ألحق بها كذباً بحيث أصبحت معلومة ومحصورة ومتناولة بين العلماء الثقات، بخلاف الثقافات الأخرى المرتبطة بأديان إلهية ذات مصادر محرفة أو وضعية لا يعرف لها أصل ؛ وحقيقة مصدرها فكر البشر سواء من أصل الوضع كالبوذية، أو بعد التبديل والتحريف كاليهودية أو النصرانية التي لم تبق ثقة بربانية مصدرها بسبب ما طرأ عليها من تحريف غير حقيقتها وأزال قداستها[٢٦ ، ص ٣٥].

وقيام الثقافة الإسلامية على مصادر صحيحة جعلها تختلف عن الثقافات الغربية والشرقية الحديثة التي قامت حضارتها وثقافاتها على بقية من دين محرف أو فلسفة إلحادية تنكر وجود الله تعالى أو من فلسفة وضعية كالفلسفة اليونانية والرومانية، أو على تصور علماني يتجاهل دور الدين، ويعزله في جزء يسير من أمور الحياة، مما جعل هذه الثقافات معرضة للتغير والتناقض والانحسار[٢٧ ، ص ٨٤].

وبهذا يتبين أن الثقافة الإسلامية وحدها ربانية المصدر، تستمد عناصرها من تعاليم القرآن والسنة المطهرة، سواء كانت عناصرها مما لا عمل للعقل البشري فيها سوى التلقي والفهم والتطبيق كأساسيات الدين التصورية والأحكام التعبدية والمقدرات وأصول المعاملات، أم كانت مما للعقل مجال فيه بالاجتهاد والنظر لاستنباط أحكام عملية يحتاج إليها الإنسان مما لم يأت في النصوص له أحكام جلية[٢٨ ، ص ٣٠].

كما أن الثقافة الإسلامية تعتمد على عقيدة صحيحة هي محور ارتكازها، وقاعدتها الصلبة، منها تستمد شخصيتها، ومكوناتها ومقوماتها ومجالاتها واتجاهها، وهذه العقيدة مبنية على أركان الإيمان الستة : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقضاء خيره وشره، وقد ارتبطت بهذه العقيدة ارتباطاً تاماً، وجعلتها محوراً رئيساً تنبثق منها تصوراتها وأحكامها، وقد انفردت عن غيرها من الثقافات بهذه الميزة التي ساهمت في التأكيد على ذاتيتها واستقلالها نظراً لصحتها ووضوحها ويقينيتها،

وقدرتها على تفسير الحقائق الوجودية تفسيراً صادقاً، لا غموض فيه، ولا لبس، ولا مغالاة، ولا مجافاة للواقع[٢٩، ص ٣٩].

إن ارتباط الثقافة الإسلامية بالعقيدة أثمر آثاراً منفردة لا تثمرها أي ثقافة أخرى، فقد نشأت في قلب الإنسان المسلم وعقله حالة من الانضباط لا تتأرجح معها المفاهيم، ولا تهتز معها القيم، ولا يتميع فيها التصور ولا السلوك، فالذي يتصور ألوهية الله تعالى، ويدرك حدود عبوديته يتحدد اتجاهه ويتحدد سلوكه، ويعرف على وجه الدقة من هو؟ وما غاية وجوده ؟ وما حدود سلطانه ؟ ويدرك حقيقة هذا الكون، وحقيقة قوة الله وقدرته، ومن ثم يتصور الأشياء، ويتعامل معها في حدود مضبوطة، ينشأ عنها انضباط في طبيعة العقل وموازينه، وانضباط في طبيعة القلب وقيمه، وانضباط في التعامل مع سنن الله بعد ذلك، والتلقي عن هذه العقيدة يزيد هذا الانضباط ويحكمه ويقويه[٣٠، ص ٢٢٨].

وظيفة الثقافة الإسلامية   بناء ا وية الوطنية

تضطلع الثقافة الإسلامية بوظيفة مؤثرة ورائدة في بناء الهوية الوطنية وصياغتها وفق تعاليم الإسلام وقيمه السامية، تتضح في المحاور التالية:

١- المحافظة على سمات شخصية الأمة الإسلامية من الضياع أو التلاشي والاندثار، ذلك أن أي ثقافة من الثقافات تتفرد بسمات خاصة تميزها عن غيرها، وتنتمي إلى أمة معينة ذات مبادئ وقيم وتصورات خاصة بها، فكما أن الإنسان ينتمي إلى أسرة أو جماعة أو وطن فكذلك الثقافة ؛ كما أن الوطن الإسلامي هو المكان الذي تمتد فيه هذه الأمة بشعوبها المختلفة، وتمارس فيه شعائرها وقيمها ومبادئها الإسلامية .

وإذا كان الوطن الإسلامي قد تعرض لغزو الثقافة الغربية أيام الاستعمار السياسي، ولا يزال يتعرض لموجات من التغريب عن طريق وسائل الإعلام والاقتصاد

وما يعرف بالعولمة - فإن الثقافة الإسلامية تؤدي وظيفة الوقاية من ضرر هذا الغزو، وتعمل على تحصين الوطن الإسلامي من أثر عملية الإحلال الثقافي الغربي التي تمارس في المجتمعات الإسلامية.

٢- العمل على توحيد شعوب الوطن الإسلامي ودوله من الناحية الفكرية، فوجود ثقافة إسلامية مشتركة يلتقي عليها المسلمون، ويشب عليها الشباب المسلم سيقيها من حالة التمزق الفكري والتشتت الثقافي، ويخلصها من حالة الضياع والعيش بدون شخصية وفكر موحد[٣١، ص ١٠]، وسيعينها على ظهور أهداف واهتمامات وتصورات مشتركة ستسهم في نسج وحدة من التكوين الداخلي بين أبناء الأمة الإسلامية، وفي توحيدهم على نماذجها البشرية وقيمها، وجمعهم على الالتزام بمصير الأمة التضامني الواحد[٣٢، ص ٦٨].

٣- الإسهام في تشكيل البعد النفسي للفرد داخل الوطن الإسلامي، وتكوين الشعور بالأمان النفسي ؛ لأن الثقافة الإسلامية أكثر العلوم اتصالاً بكرامة الإنسان، وأعمقها تأكيداً لذاته، وهذا يتحقق من خلال تأكيدها على الأطر والأنساق والنظم والقيم المستمدة من الوحي، وعنايتها بها ؛ نظراً لأنه ينشأ من الالتزام بها واحترامها بشكل جماعي اطمئنان ذاتي للفرد المسلم، وارتياح داخلي، فهي تكسب الفرد شعوراً بالتضامن والتعاون، وتحقق له إحساساً بروح الانتماء إلى جماعة المسلمين الواحدة[٣٢، ص ٦٨ ـ ٦٩]، ويتم معرفة أهمية البعد النفسي الذي يشكله هذا العلم عند تصور أن المسلم الذي يعيش في مجتمع غير مسلم يشعر بالغربة في أطر تفكيره ونظم حياته، وبالخوف على قيمه ومحارمه وكرامته من أن تنتهك أو يعتدى عليها، وبالتوجس الداخلي من كل شيء، إن هذا يعود إلى فقده للرابط الذي يربطه بالثقافة السائدة في وطنه المسلم .

٤- الوقوف في مواجهة الأخطار الفكرية التي يتعرض لها الوطن الإسلامي ممثلة في الدراسات الاستشراقية التي تستهدف تشويه صورة الإسلام في نفوس المسلمين، وزعزعة ثقتهم بمصادر دينهم، وتشكيكهم بمبادئ الإسلام وعقائده وقيمه وتاريخه، وفي التنصير الذي يسعى إلى تحويل المسلمين عن دينهم، ونشر الإلحاد والنصرانية في بلاد المسلمين، أوفي التغريب الذي يعمل على صياغة المجتمعات الإسلامية صياغة غربية تحاكي حياة المجتمع الغربي في العادات والتقاليد ونظم الحياة.

إن مواجهة هذه الأخطار التي تحدق بالأمة الإسلامية تحصل عن طريق تحصين أبناء الأمة المسلمين من التأثر بهذه الأفكار، ووقايتهم من أضرارها، ونقد الدراسات الاستشراقية المعادية، وبيان مغالطتها للحقيقة، وتعمدها للتشويه والكذب، وإيقاف حركة التنصير، وذلك عن طريق مضاعفة الجهد في الدعوة إلى الله تعالى، ومنع المنصرين من الدعوة إلى دينهم في بلاد المسلمين، وتحقيق قدر من الوعي بأهداف العولمة وأخطارها على مكتسبات الأمة.

٥- تعميق روح الانتماء إلى الإسلام، وربط المسلمين بدينهم القيم وتاريخهم المجيد وحضارتهم العظيمة، وتوثيق الصلات العقدية والفكرية بينهم مهما تباعدت بلدانهم، أو اختلفت أعراقهم ولغاتهم، وبناء الشعور بالأخوة المبنية على الإيمان والنصرة في الدين في نفوس المسلمين بحيث يحس بعضهم بآلام بعض، ويفرحون بفرحهم، ويرتبط المسلم بأخيه برباط فكري واحد، يوحد مشاعرهم وأحاسيسهم ؛ بل وتصوراتهم ونظرتهم إلى الحياة ومواقفهم من متغيراتها.

إن ثقافة تقوم بهذه الوظيفة جديرة بأن يعتز بها أبناؤها المنتمون إليها، وذلك لسمو أهدافها ومضامينها ومناهجها، فهي ثقافة دين ختم الله به الرسالات ورضيه لعباده، كما قال تعالى: ↓ ✂ ◆⓿❑⬦ ➔ ◆▢❑ ⬀☠➚▤

⑩☠➚▤❑✡③ ◆❑⬦ ➔ ◆■⓿ ⬀☠➚▤

[illegible] ﴾ [المائدة، الآية ٣] أحل الله به الطيبات، وحرم به الخبائث، ورفع به الحرج الذي كان على الأمم السابقة، قال تعالى في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ [illegible] ﴾ [الأعراف، الآية ١٥٧] ، وأصبحت الثقافة بالإسلام ثقافة عالمية وليست ثقافة أمة عنصرية منغلقة على نفسها كبني إسرائيل، وثقافة هداية للبشرية تخاطب العقل وتهديه للتي هي أقوم، وليس ثقافة ضلال وجهالة، فعلى المسلم أن يتمسك بهذا الدين، ويعتز به كما قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [الزخرف: ٤٣]، ومعنى ذكر لك أي شرف لك، وفخر لكل من يدين به[٣٣، ص ٤٩-٥١] .

الثقافة الإسلامية وتعدد الثقافات

على الرغم من كون الثقافة الإسلامية تمثل هوية الأمة الإسلامية، وتضطلع بوظيفة حمايتها من التلاشي أو الذوبان في غيرها إلا أنها واقعية في نظرتها إلى الثقافات، فهي ترى أنها متولدة عن سنة الاختلاف بين بني البشر، كما قال تعالى: ﴿ [illegible]

❐◆✐⌧🔔⬧🕒◉ⓜⓚ⌧🖮⌧ ⌘⌧◘■◑⬧♑←⛿⇔ ↑ [هود، الآية ١١٨ ـ ١١٩]؛ إذ الاختلاف والتغيير سنة من سنن الله تعالى في المجتمعات، يقول ابن خلدون: (وأحوال الأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على حال واحدة، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص يكون في الأوقات والأمصار؛ فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول)[٣٤، ص ٢٩] ومادام الأمر كذلك فلابد إذاً من استصحاب هذه الحقيقة الواقعية ومراعاتها في مجال التعامل مع الثقافات الأخرى.

والثقافة الإسلامية كذلك على وعي تام بالثقافات الأخرى، وهذا يعود إلى كونها ثقافة إنسانية تحترم الإنسان وتكرمه، وتحتفل بالمثل والعليا والوحدة الإنسانية، وتعنى بالاتصال بالشعوب ومحاورتها على أساس من العلم والحق، وتهتم بمخاطبة الثقافات الأخرى على أساس من الاحترام المتبادل، كما أنها تشاركها في حماية القيم وإرساء المبادئ الإنسانية، فهي ثقافة ذات نزعة إنسانية واضحة في كل جانب من جوانبها، ولا أدل على ذلك من مكاتبة الرسول صلى الله عليه وسلم لملوك وأمراء عصره، وحضوره حلف الفضول لنصرة المظلومين، فقد روي عنه أنه قال: (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت) [٣٥، ج ١، ص ١٥٥]أي لو دعي إليه من غير المسلمين لأجاب مادام محققاً للعدل والإنصاف لبني الإنسان ؛ لذا جاءت الشريعة راعية للقيم والمثل العليا، كما قال ابن القيم: (إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث ـ فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل ؛ فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه)[٣٦، ج ١، ص ٣]

إن هذه السمة المميزة للثقافة الإسلامية في وحدة العقيدة (تطبع كل الأسس والنظم التي جاءت بها حضارتنا، فهناك الوحدة في الرسالة، والوحدة في التشريع، والوحدة في الأهداف، والوحدة في الكيان الإنساني العام، والوحدة في وسائل المعيشة وطراز التفكير؛ حتى أن الباحثين في الفنون الإسلامية قد لحظوا وحدة الأسلوب والذوق بأنواعها المختلفة: فقطعة من العاج الأندلسي، وأخرى من النسيج المصري، وثالثة من الخزف الشامي، ورابعة من المعادن الإيرانية تبدو رغم تنوعها وزخرفتها ذات أسلوب واحد، وطابع واحد ـ فلا عجب في أن تكون الثقافة الإسلامية من بين الثقافات ـ إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومنابته ومواطنه في قوله تعالى: ↓ ③♦🕔✵🕯❒⑨☙&❑👓
👓✂👓☎☾❑👓❑↓ ☏✪☼✵👓 ⌘⍓▪◼☏⇘✡❑🕔▤↗📪
♋♓♊ ❶♦📫☒❷☎ ❒♦🕮↑☼ॐ♦✍📄
❒♦♉⍓➔⍓▪▫✡❑🕔▤↗☠⬀ ⅄↗➔↖❑📪ॐ👓
❒♦🔔♦⌨♦👓✏✶✍✍• ☎♋☝♦➔⍓👓❻♦▫➔❑☑✂☎ 📄
☏♎♌❑ 🕮❒📄⇩❷♦👌♦▤↗📪⬀ ↖♋✡⑨⍓ ✂👓✏★
🕮❑✍⇘☏♦☎▤↗☠⬀ 📄 ↑ [الحجرات، الآية ١٣]أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة، وجعل حضارته عقداً تنتظم فيه جميع عبقريات الشعوب والأمم التي خفقت فوقها رايات الفتوحات الإسلامية؛ ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأمة واحدة ؛ إلا الحضارة الإسلامية فإنها تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا وحدتها من جميع الأمم والشعوب)[٣٧، ص ٣١].

إذا كان المعنى الإنساني واضحاً في الثقافة الإسلامية فإن الثقافات الوطنية عامة تعاني من فقدان هذا المعنى، مما حمل الباحث الأمريكي (ريتشارد ماك كوين) مستشار وفد الولايات المتحدة في الدورات الأولى والثانية والثالثة للمؤتمر العام لليونسكو (على

الدعوة إلى إنشاء نظام إيجابي عالمي يلبي مطامح الشعوب، مشيراً إلى أن على هذا النظام أن يعدل طبائع الشعوب وأوضاعها وعاداتها، مستنداً في ذلك إلى المكتسبات العقلية والخلقية ومبتكرات الأفراد في الإطار العالمي طبعاً في ميدان الفكر والعمل والتعبير)[٢٥ ، ص ٩٤]وفي هذا السياق صدر عن مجموعة الخبراء المجتمعين بدعوة من اليونسكو لدراسة المشكلات الناشئة عن الاتصالات والعلاقات بين الحضارات في العالم ـ بيان جاء في ختامه ما يلي: (إن مشكلة التفاهم الدولي هي مشكلة علاقات بين الثقافات ؛ فمن هذه العلاقات بين الثقافات يجب أن ينبثق مجتمع عالمي جديد قوامه التفاهم والاحترام المتبادل، وهذا المجتمع يجب أن يأخذ صورة نزعة إنسانية جديدة يتحقق فيها الشمول بالاعتراف بقيم مشتركة تحت شعار تنوع الثقافات)[٣٨، ص ٤٢٣].

وإذا كانت الثقافة الإسلامية تأخذ بمبدأ التفاهم مع الثقافات الأخرى والاحترام المتبادل بينها فإنها في الوقت نفسه لا تأخذ بفكرة التعايش مع الثقافات التي تستهدف كسر الحواجز المانعة من تأثيرها لغرض إحلال ثقافتها مكانها وتوطينها[٣٩، ص ٢٤] لكنها لا تمانع من تفاعل الثقافات وتقاربها في الجوانب العلمية والتطبيقية والحضارية على أن يكون ذلك مبنياً على الاحترام المتبادل في جو سلمي بعيد عن الروح العدائية والتعصب ضد الثقافات الأخرى، وعن احتكار المعلومات والتقنيات الحديثة وتوظيفها في سياق من أجل هيمنة ثقافة على أخرى.

إن محافظة كل أمة على ثقافتها لا ينافي قبول تعددية الثقافات، وإن رفض التعايش الثقافي المؤدي إلى إلغاء الهوية الثقافية لكل أمة لا يعني الأخذ بأحادية الثقافة ؛ وإنما الأحادية الخطيرة تكمن في سلوك منهج إلغاء الثقافات الأخرى وإنكارها، وفرض ثقافة معينة عليها، هذا المنهج مارسته الثقافة الغربية ضد الثقافات الأخرى ؛ فقد ميزت بين الشعوب، وألبت المذهبيات والأديان بعضها على بعض، كما مارست هذا المنهج مع

الثقافة الإسلامية بشكل خاص فترة الاستعمار ؛ حيث نقلت الدول الاستعمارية أنظمتها السياسية والاقتصادية ومذاهبها الفكرية والاجتماعية إلى الوطن الإسلامي، وفرضتها على الشعوب الإسلامية على سبيل القسر والإلزام، واستخدمت ما أوتيت من قوة لتغيير هوية الأمة الإسلامية وتغريبها غير عابئة بتاريخها ومصادرها ومدارسها الفكرية وخصوصيات مجتمعاتها وعقيدتهم وقيمهم ومبادئهم، ولا يزال هذا المنهج مسيطراً على الثقافة الغربية على الرغم مما يعرف عنها من أنها ديمقراطية في منهجها، عقلانية في تفكيرها وتعاملها، تؤمن بالتعددية والاختلاف والتنوع بين الحضارات الإنسانية ؛ ولعل الواقع الحالي المتجه نحو فرض الثقافة الغربية عن طريق العولمة أكبر شاهد على ذلك، وهو ما يمكن رصده في السياسة الغربية الحالية التي تعمل على المحافظة على عقلية التمركز الغربي وإقصاء الآخر، ولعل عقدة التخوف من (الانتقام مما فعلته الحضارة الغربية بالحضارات والثقافات التي أخضعتها لهيمنتها، وهي ما اعترف بها البروفيسور صموئيل هنتجتون عندما قال: ابتداء من سنة ١٥٠٠م بدأ التوسع الضخم للغرب مع جميع الحضارات الأخرى، وقد تمكن الغرب أثناء ذلك من الهيمنة على أغلب الحضارات وإخضاعها لسلطته الاستعمارية، وفي بعض الحالات دمر الغرب تلك الحضارات) [٤٠، ص ٢١] المتعايشة فيما بينها دون أن تعتدي حضارة على خصوصيات الأخرى)، فلعل هذه العقدة هي التي دفعت الثقافة الغربية على الاستمرار على هذا المنهج المتطرف أحادي الثقافة.

وإذا كنا في سياق الحديث عن الثقافة الإسلامية فإنها ثقافة اختلفت كثيراً عن غيرها في موقفها من الثقافات الأخرى ؛ فقد اعترفت بثقافات الأديان التي كانت موجودة في داخل الوطن الإسلامي، ومنحت أصحابها حرية الممارسة، واحترمت مقدساتهم ومصادرهم الدينية والفكرية، فقد أقر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة وتأسيسه لدعائم الدولة الإسلامية ـ لليهود الذين كانوا يعيشون في

المدينة حقهم في ممارسة دينهم، ففي المعاهدة التي عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم بين أهل يثرب من المسلمين واليهود والتي تعد أول دستور مكتوب للدولة الإسلامية التنصيص على أن (لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم)[٤١، ج ٢، ١٢١]، كما أن العهد الذي كتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهل إيلياء دليل على أن إقرار الإسلام للأديان الأخرى واحترام معتقداتها وما ينشأ عنها من قيم ومبادئ - موقف ثابت في تاريخ المسلمين، فكان مما جاء في عهد عمر رضي الله عنه: (هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم.. لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من حيزها، ولا من صلبهم لا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم)[٤٢، ج ٤، ص ١٥٨]، وحاور المسلمون أتباع هذه الأديان بالتي هي أحسن دون إكراه يحمل أحداً على الانسلاخ من ثقافته أو مصادرة آرائه ؛ وإنما حوار منفتح ومقنع على أساس ⬇ ♎➔✍⬀ ♌♑◑ ⬀☠➔⌛◆☪🕐⍓♎⬀❷⬅✍ ☎✂❑➔✍✍⍓♎ 📄➔☪✌⬅⚐⬄ 🕒❀🕐⑨♑♎♑✓▫✈ ⬆ [البقرة، الآية ١١١]يمكن الأمة من القيام بواجب الشهادة على الناس التي جعلها الله وظيفة من وظائفها في علاقتها بغيرها وتواصلها مع الآخرين، قال تعالى: ⬇ ❒◆✍☒⓿☒🕓👁♑⌨⍓ ♉⍓➔⍓▪✡❑🕐▤➚☠⬀ 📖⬆✌❑◘☪ ❒◆♒⍓⮌✞✍ 👁er♑✌♦⌛➔❑☼⬅❑✂☎ ✸➔🙰◘⑨⍓✂✍➚◆ ⬉◆✍■❼ ✂✍👁✡❑✍❑⬂ ❒◆③◆▤➚❑♌◆ ✂✍👁♒❷▪♒⬅❑✌⬉ ⬂◆▣■⓿⬂▤➚☠⬀ ⬆☒♑♑⓿⑨✡✂ ⬆ [البقرة، الآية ١٤٣].

إن الثقافة الإسلامية تمتلك خطاباً وسطياً بعيداً عن الغلو والتفريط والتنفير في الأسلوب والمضمون، تستمده من وصايا الرسول صلى الله عليه لمعاذ وأبي موسى رضي الله عنهما لما بعثهما إلى أهل اليمن وكانوا أهل كتـــاب: (يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا)[٤٣، ج ٥، ص ١٠٧]، وتسعى أيضاً إلى تأليف القلوب، والابتعاد عن كل ما

يؤجج مشاعر العداء لدى الآخر، والعمل على تضييق دائرة الخلاف معه تجنباً لكل ما يؤدي إلى القطيعة والسباب، ففي الحديث عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، قالت: أتتني أمي راغبة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. فسألت النبي صلى الله عليه وسلم أأصلها ؟ قال: نعم. قال ابن عيينة: فأنزل الله عز وجل فيها: [illegible] [الممتحنة، الآية ٨]، وقال تعالى: [illegible] [الأنعام، الآية ١٠٨] قال القرطبي في تفسير الآية (... نهى سبحانه المؤمنين أن يسبوا أوثانهم ؛ لأنه علم إذا سبوها نفر الكفار وازدادوا كفراً) [٤٤، ج ٧، ص ٦١]' كما ترعى الثقافة الإسلامية في تعاملها مع الآخرين منهج العدل والإنصاف في جميع الأحوال [٤٥، ص ١٣ ـ ١٥]' عملا بأمر الله تعالى للمؤمنين: [illegible]

✁ ✍ ✏ ⅄ 🗐 ◑ ♍ · ✁ ✍ ✏ ⅄ ⌘ ☐ ⌛ ❷ ❸ 🖮 ✍ ☺ ☐ ✍
✍ ♦ ➔ ✉ ☺ ☐ 🖬 ➔ ☐ ♍ ☙ ↑ [المائدة ، الآية ٨].

وفي الجملة فإن توخي النزاهة والموضوعية والاحترام في قضايا الاختلاف والتعدد الثقافي والتمايز الحضاري والنظرة العادلة إلى كل الثقافات التي (تعطي كل ذي حق حقه) ـ سيعزز مستقبل الإنسانية بالوئام والتعايش الممكن ؛ بدلاً من التنافس والصدام المهلك للشعوب المكرس للكراهية بينها[٤٠ ، ص ١٢٣] وسيتيح مجالاً رحباً للحوار بين الشعوب ، وسيمنح الآراء الصائبة الظرف المناسب لإقناع الآخرين والانتفاع بها دون حاجة إلى إكراههم على قبولها ، ومن ثم سيجعل ثقافتها ظاهرة على الثقافات الأخرى ، ذلك أن الثقافة الأقوى التي تمتلك العلم والحق والإقناع لا تخشى على نفسها من السقوط أو الإنهزام .

تعدد الثقافات داخل الوطن الإسلامي

إن الوطن الإسلامي على امتداده يعج بالاتجاهات الفكرية والمذهبيات العقدية والفقهية، وإذا كان من جامع له فإنه يجتمع على قدر كبير من الثقافة الإسلامية العامة التي هي ثقافة كل أطيافه ونخبه ومذاهبه، وهي مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، ويفترقون في تفصيلاتها، وهذا الافتراق وبالأحرى الاختلاف يعود إلى مشارب ومدارس وقناعات شخصية وجمعية ونظرات إلى المستقبل لها بعد تاريخي وعقدي وفقهي وقومي وواقعي، ولا يمكن أن يستثني مجتمع أي دولة من الدول الإسلامية من هذا الاختلاف أو التعدد الثقافي، فقد افترقت الأمة الإسلامية إلى فرق متعددة اندرس كثير منها وبقي بعضها، لكل فرقة عقائدها وأعلامها ورؤاها، وتعددت الاجتهادات الفقهية في الوقائع والمستجدات، وتشكلت بسببها مذاهب فقهية، لكل مذهب منهجه وقواعده واستدلالاته، واختلفت النزعات الوطنية والقومية، ولكل حزبه وطموحاته، وتباينت النظرات إلى المستقبل، ولكل رأيه وتوقعاته ومعالجاته، وقد نشأ عن كل منها ثقافة خاصة بها، لها سماتها ومفرداتها وأطروحاتها.

وأمام هذه الثقافات المحلية ذات العمق التاريخي كيف نقف ونحن في حال من التحدي مع الثقافات الأجنبية التي تريد أن تفرض نفسها علينا، وتلغي كل أنواع ثقافاتنا؟ هل نقف موقف الإقصاء من الآخر، أم نقف منه موقف الاعتراف؟.

نعم هناك من يرى ضرورة الاعتراف بتعدد الثقافات المحلية، وقبول الآخر من المواطنين في الوطن تعايشاً وتحاوراً وتسامحاً بحجة أن العصبيات والمذهبيات والطوائف لا يمكن أن تكون القاعدة أو المرجعية لأي مجتمع يواجه تحديات العصر الحديث[٤٦، ص١٤٩]، وأن هذه التعددية (لا تعتبر خطيرة ولا ضارة، وبخاصة في ظل قيم تربوية متوازنة، يحترم فيها كل فرد خصوصيات الأخر، وكثيراً ما يقع التعايش والتساكن بين

المجتمعات المتباينة في مواقفها إذا احترم كل فريق خصوصيات الفريق الآخر، وكلما نمت قيم الفضيلة في المجتمع، واتسعت آفاق الرؤية الإنسانية كانت أسباب التعايش والتساكن أرسخ وأقوى، وكانت قادرة على صياغة قاعدة سليمة وعادلة لتعاون مثمر ومفيد، لتحقيق مصالح مشتركة لكل من الفريقين. والمجتمعات الإسلامية أقدر من غيرها على تحقيق هذه المعادلة بين الطوائف والمذاهب والأديان، وهذا ما يؤيده تاريخنا الإسلامي الذي احتضن أروع صورة من صور هذا التعايش في ظل قوميات متباعدة، ولغات متباينة، وبين شعوب متنافسة)[٤٧، ص ٣٨٣] .

وهناك من يرى أن تبني ثقافة واحدة ترعى الوحدة في أركان الدين وقواعد الملة، وتقر الاختلاف في القضايا الفرعية[٤٨، ص ٢] دون الأصول هو الأولى، حفظاً لوحدة الأمة وتماسكها واجتماعها، لا سيما وأن النصوص الشرعية من القرآن والسنة قد دعت إلى البعد عن الاختلاف والفرقة، قال تعالى:

[illegible]

[آل عمران، الآية ١٠٣]، وقال تعالى:

[illegible]

[الأنعام، الآية١٥٩] قال بن كثير في تفسير هذه الآية: (الظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له ؛ فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره

على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ـ وكانوا شيعاً ـ أي فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برأ رسول الله صلى الله عليه وسلم مما هم فيه) [٤٩، ج ٢، ص ١٩٦]وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خطبنا عمر بالجابية، فقال:(يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا، فقال: أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.. عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة ؛ فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة) [٩، ج، ص]، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالانصراف عن قراءة القرآن على عظم فضله إذا كانت قراءته تؤدي إلى الاختلاف والتنازع والتعادي، فعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: (اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه) [٤٣، ج ٦، ص ١١٥، و١٧، ج ٤، ص٢٠٥٣].

لعل الجمع بين أثر هذين الرأيين في الواقع يتضح إذا أدركنا أن الاختلاف عموماً على نوعين، الأول: اختلاف تنوع، وهو أن يكون كل واحد من القولين والفعلين والرأيين حقاً مشروعاً، كاختلاف الصحابة رضي الله عنهم في القراءات، فعن بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً قرأ آية، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ خلافها، فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهة، فقال: (كلاكما محسن، ولا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا) [٤٣، ج ٣، ص ٨٨]، ومنه كون كل من القولين هو في المعنى القول الآخر، لكن العبارتين مختلفتان، كما قد يختلف في ألفاظ الحدود والتعبير عن المسميات والمفاهيم[٥٠، ص ٥١٤] فهذا الاختلاف سائغ، قال العلامة ابن الوزير: (الخلاف الذي نهى عنه، وحذر منه الهلاك هو التعادي ؛ فأما الاختلاف بغير تعاد فقد أقرهم عليه، ألا تراه قال لابن مسعود: كلاكما محسن. حين أخبره باختلافهما في القراءة؟

ثم حذرهم من الاختلاف بعد الحكم بإحسانهما في ذلك الاختلاف، فالاختلاف المحذر منه غير الاختلاف المحسن به منهما، فالمحذر منه التباغض والتعادي والتكاذب المؤدي إلى فساد ذات البين، وضعف الإسلام وظهور أعدائه على أهله، والمحسن هو عمل كل أحد بما علم مع عدم المعادة المخالفة والطعن عليه. قال: وعلى ذلك درج السلف الصالح من أهل البيت والصحابة والتابعين)[٥١ ، ص ٣٧٥] .

أما النوع الثاني من الاختلاف: فهو اختلاف التضاد أي القولين المتضادين إما في الأصول، وإما في الفروع، على أساس أن المصيب واحد، وهو المحمود، فهذا الاختلاف يؤول غالباً إلى العداوة والبغضاء ؛ لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق، ولا تنصفها، بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل، والأخرى كذلك، ولذلك جعل الله مصدره البغي[٥٠ ، ص ٥١٦] في قوله: [illegible] [البقرة، الآية ٢١٣] ولو حصل الإنصاف واحترام الآخر لكان هذا الاختلاف أيضاً مقبولاً سائغاً؛ إلا أن الواقي من الوقوع في البغي بين المختلفين يكون في ابتغاء كل منهما الحق وحده.

ولما كانت الثقافة الإسلامية مرتبطة بالوحي الإلهي، ومستقلة في نشأتها عن تأثير الثقافات الأخرى، فهي لم تتطور عن أحد منها، أو تتولد عنها، وإنما نشأت في كنف مفاهيم القرآن الكريم والسنة الصحيحة وتصوراتهما، ونمت في ظلهما، وارتبطت بالإسلام الذي هدم الشرك ونسخ الأديان، وانفردت بوصف الدين الصحيح، كما قال تعالى: [illegible]

✍☺⓿⬂⬄♦✉ ❶⚐▫◘✌➔⬂♑✍✂ ⬉☠➔♎♦⬈✎🔔⊠♊
⬀❷➔▦⬁▤♦③ ♊♦✍♦❐ ▤ ⬄⚐←♑❐✡⬃❹♦✉
⅄✎✍✂ ▪♍♋✉▫ ★✎✍✂ ✌💣◷♦③✍♦★♋✉
▪✿❸♋③⬈← ✂✍💻⬂♦✌❍✿✍⚇☞ ↑ [آل عمران، الآية ١٩].

وقال تعالى : ↓ ❐♦✍♦♊ ③♦▭⬀✍♦⬃⮫ ⬊⊠❷⬀❸♦
✂✍"💣♋⬄◘■◷☠⬂ ⑩✌③✡✡✍ ▫◘■♊ ③⬉☽⬂⌛♦✍•
✍✌✡⬃❍← ❐♦♎➔❑♦ ×♋❼ ✂✍⍓☞⌘⮰❷♦❐ ⌀
✍✌♊⌘ ✂✍♑⬂②⍓◷❍⮰❷⊠③♊⌘ ↑ [آل عمران، الآية ٨٥]

فبسبب ارتباط الثقافة الإسلامية بالوحي اختلفت عن الثقافات التي قامت على آراء البشر واجتهاداتهم، أو تطورت عن ثقافات قديمة أو تولدت عنها ؛ إذ قامت الثقافة الإسلامية على أصل ديني صحيح هو الإسلام، ونشأت مستقلة عن غيرها من ثقافات الأمم والمجتمعات، فهي ليست متطورة عنها، ولا امتداداً لأحدها .

ولا ريب أن استنادها على الوحي في كل قضاياها وتصوراتها يجعلها أيضاً مصونة عن الوقوع تحت تأثيرات الأهواء والآراء الفاسدة والمذهبيات المنحرفة التي ينشأ عنها الاختلاف المتضاد، وتتولد عنها العداوات ؛ فالعاصم لها من ذلك يعود إلى رد مسائل التنازع والاختلاف في كل القضايا إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لاستجلاء الحق وبيانه، وإلى تسويغ الاختلاف لأسباب علمية وظنية؛ شريطة أن لا يفسد ما بين أهل العلم والفكر من ألفة وعصمة، فقد ذكر شيخ الإسـلام ابن تيمية أن (العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله في قوله تعالى : ↓ ▫♦✉♋♌ ✍♦☪◆◷❽♦⬉⇧↓⬈☹⬃ ×♋❼
★⊠⌀⬄⬈📖 ▫♦❷⬉⑩♋❐■← ☽♋🖫■❼ ✂✍✎★
❐♦✂✍♑❷▪♋←❐✌✍ ☽♋♌ ✍⬈✡↓⬈☹⬃
✍➔♦⬃✌✌☪⬉❐♌♦ ✉♋✍✍✎★
❐♦✂✍♑⬂⓿♦❑⬀✈✌ ✂✍⍓☞⌘⮰❷⊠ ▤
❶♦◷♑✌🖮⍓ ⌘⍓❷⬀❸⊲ ❐♦📖❐❍⇧❍✿♊←

✍♦︎⬜︎▭︎ ⬜︎✍︎③☒︎🕑︎ ↑ [النساء، الآية ٥٩] وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين.. نعم من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة، أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلاف لا يعذر فيه، فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع)[٥٢، ج ٢٤، ص ١٧٢] الذين يتبعون أهواءهم، ويتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

وإذا كانت الأمة مطالبة بأن تجتمع وتتحد على أصول الدين وأركانه العلمية والعملية العظام ومفاهيمه العامة ومقاصد الشريعة التي تشكل مضامين الثقافة الإسلامية ومعالمها الظاهرة - فإنه لا يضرها أن تختلف في القضايا التي دونها من الفروع والجزئيات؛ فإن الخلاف فيها سائغ وواسع لاختلاف الناس في الفهم (والاستنتاج والاستنباط، واختلافهم في الرأي والنظر والإحاطة بعلوم الشريعة وأسرارها ومعانيها وظروف النصوص النازلة وأسبابها)[٤٨، ص ٢] ذكر الإمام الشاطبي في هذا الأمر كلاماً نافعاً بعد أن ذكر اختلاف أهل الملل السابقة، واتفاق أهل الحق من أمة الإسلام فقال: (ثم إن هؤلاء المتفقين قد يعرض لهم الاختلاف بحسب القصد الثاني، لا بالقصد الأول فإن الله تعالى حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظار ومجالاً للظنون، وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف فيها؛ لكن في الفروع دون الأصول، وفي الجزئيات دون الكليات ؛ فلذلك لا يضر هذا الاختلاف)[٥٣، ج ٢، ص ١٦٨] فهو مع كونه ضرورة هو كذلك رحمة بالأمة وتوسعة عليها ؛ فقد اجتهد الصحابة رضي الله عنهم، واختلفوا في أمور جزئية كثيرة، ولم يضيقوا ذرعاً بذلك ؛ بل وطنوا أنفسهم على ذلك، قال يونس الصدفي: (ما رأيت أعقل من الشافعي ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق في مسألة) [٥٤، ج ١٠، ص ١٦]

وقد كان الإمام أحمد يحترم رأي الإمام إسحاق بن راهويه ؛ وإن كان يخالفه في أشياء، قال عن ذلك: (لم يعبر الجسر إلى خرسان مثل إسحاق، وإن كان يخالفنا في أشياء ؛ فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضا) [٥٤، ج ١١، ص ٣٧١] ؛ بل إن هؤلاء الفقهاء باختلافهم أتاحوا لمن بعدهم فرصة الاختيار من أقوالهم واجتهاداتهم، كما أنهم سنوا لنا سنة الاختلاف في القضايا الاجتهادية وظلوا معها أخوة متحابين[٥٥، ص ٤٧ ـ ٥١]، فهذا عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد يرى اختلاف الصحابة سعة ورحمة، فيقول: (لا يسرني أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا ؛ لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة) [٥٦، ج١، ص ٢٠٩، و ٥٧، ص ٣٩٢] كما أن من بعدهم من الأئمة المتبوعين لم يروا أن يحمل أحد على رأيه بالعنف والقوة، يدل على هذا أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور لما أراد أن يحمل الناس على ما في موطأ الإمام مالك من آراء وأحكام بسلطان الدولة بحيث يلتزم بها الكافة، وتلغى الآراء والاجتهادات الأخرى نهاه الإمام مالك عن ذلك؛ لما في ذلك من مصادرة للآراء السائغة، وإلغاء لاجتهادات الآخرين وما بني عليها من أوضاع وأحوال، فقد روي أنه لما حج المنصور قال لمالك: قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي صنفتها فتنسخ، ثم أبعث بكل مصر من أمصار المسلمين منها بنسخة، وآمرهم بأن يعملوا بما فيها، ولا يتعدوه إلى غيره. فقال: يا أمير المؤمنين، لا تفعل هذا؛ فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وأتوا به من اختلاف الناس ؛ فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم [٥٨، ج ١، ص ١٤٥].

يبدو أن ثقافة الاختلاف وتعدد الثقافة شائعة وممارسة إلى درجة عالية في عهود سلف الأمة الصالح وفق ما نطقت به أقوالهم والقصص السابقة، وأن التنوع الثقافي كان ظاهرة من الظواهر الفكرية في مجتمعهم التي لا يمكن إخفاؤها، وأن الثقافة العامة التي

تمثل اتجاه جمهور العلماء وعليها غالب الناس لم تكن الوحيدة في المجتمع ؛ وإنما هناك ثقافات محلية تختلف سعتها ويتباين عدد أتباعها هي ثقافة مدارس واتجاهات فكرية موجودة وقائمة ، وأن العلاقة بينها كانت علاقة حوار وتغافر واعتذار ؛ لا علاقة عداوة وبغض وكراهية ، فعلماؤها كانوا يراعون الألفة والعصمة وأخوة الدين وإن اختلفوا في القضايا العلمية العقدية كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[٥٢ ، ج ٢٤ ، ص ١٧٢]، ومن الأمثلة على ذلك اعتذار شيخ الإسلام ابن تيمية لشيوخ أهل التصوف الذين حسن ذكرهم ، وثبت إيمانهم ، فقال : (لكن شيوخ أهل العلم الذين لهم لسان صدق وإن وقع في كلام بعضهم ما هو خطأ منكر فأصل الإيمان بالله ورسوله إذا كان ثابتاً غفر لأحدهم خطأه الذي أخطأه بعد اجتهاده)[٥٩ ، ج١ ، ص ٢٦٥] وإنكاره ذم المجتهد وتأثيمه ؛ إذ يقول : (ومن علم منه الاجتهاد السائغ فلا يجوز أن يذكر على وجه الذم والتأثيم له ؛ فإن الله غفر له خطأه) [٥٢ ، ج٢٨ ، ص ٢٣٤] مما يجعل مسلك الاقتصار على المذهب السائد متشدداً ؛ لما في ذلك من تنكر للتراث الإسلامي الذي يعترف بالثقافات المختلفة والمذاهب المتنوعة ، ولسير العلماء ومفكري الأمة الذين كانوا يتعاملون مع مخالفيهم على أساس الحق والعدل ، ويرعون في ذلك تأليف القلوب واجتماع الكلمة ، ويجتنبون كل ما يفضي إلى الكراهية والعداوة.

الثقافة الوطنية والعو ة

إن العولمة في اتجاهها الفكري (تطمح إلى صياغة ثقافة كونية شاملة ، تغطي مختلف جوانب النشاط الإنساني ، فهناك اتجاه صاعد يضغط في سبيل صياغة نسق ملزم من القواعد الأخلاقية الكونية)[٦٠ ، ص ١٠٤]، وأن هذه الثقافة مهما استخدم في صياغتها من صبغة علمية ومعرفية فإنها كما يراها الأستاذ عبد الوهاب المسيري صيغت

داخل التشكيل الحضاري والسياسي الغربي، فهي تحمل معالم هذا التشكيل، وتدور في إطار العلمانية الشاملة التي تدعو إلى إنكار القيم وتأكيد النسبية المعرفية والأخلاقية، وتطور العالم؛ ولا يبعد أن تكون الصفة المعرفية لهذه العولمة وسيلة للتسلل إلى إرجاء العالم من أجل بناء الهيمنة الثقافية الغربية [٦١، ص ٢٠] التي تسعى الدول الغربية إليها، وتعمل على تحقيقها عن طريق الاتفاقات الثقافية والاقتصادية وغيرها مع الدول الأخرى، والتي غالباً ما تفرض فيها مصالحها الثقافية، وسيادة قيمها على الأطراف الأخرى؛ لكونها تمثل الطرف الأقوى، سواء كانت هذه الاتفاقيات ثنائية، أم عن طريق المنظمات الدولية كمنظمة التجارة ومنظمة العمل الدولية، أو عن طريق المؤتمرات التي تقرر فيها القيم الغربية، وتلزم بها الدول الأخرى، وتربط الدول الغربية مساعداتها للدول الأخرى بتنفيذها، أو عن طريق وسائل الإعلام العالمية كالفضائيات وشبكة الإنترنت[٦٢، ص ٣٧] التي تعتمد مادتها الإعلامية على تسويق الفكر الغربي؛ لذا لا يرى الدكتور عبد الرحمن الزنيدي غرابة في أن تصبح العولمة نهجاً جديداً للغرب يروج بشكل صريح وظاهر من خلاله قيمه ذات البعد الجسدي المادي في القضايا التي تتصل بالمرأة والأسرة والمجتمع، ومعطيات حضارته المادية الشهوانية التي تعد أشد الحضارات فساداً في الأمور الاجتماعية، وقد تجلت بدايات هذا الترويج في قرارات مؤتمرات السكان والمرأة[٦٢، ص ٢٩] التي عقدت في القاهرة عام (١٩٩٤م)، وفي بكين عام (١٩٩٥م) باهتمام ورعاية غربية.

ومن الناحية الواقعية نجحت العولمة الثقافية بوسائلها السياسية والمعلوماتية والاجتماعية في صياغة مفاهيم جديدة في بعض التصورات الثقافية والسياسية والاجتماعية، واستطاعت أن تحلها محل الثقافات الوطنية، ولا ريب أنها من هذه الناحية شكلت خطراً على الهوية الثقافية الوطنية للمجتمعات، وعلى الحس الوطني الرسمي

المتولد عن خصوصية التجربة التاريخية للدول، نعم؛ إنه قد لا يستطيع أي مجتمع أن يبقى صامداً في زمن انهيار الحدود وتدفق الأفكار والنظم بشكل سريع ومتتابع عبر منافذ متعددة أمام هذه العولمة دون أن يتأثر بمفاهيمها الثقافية الجديدة؛ إلا أن ذلك ليس مطرداً، أو حتمياً لا مناص منه ؛ فإن المجتمعات التي تمتلك ثوابت عقدية وخلقية متجذرة في قلوب أفرادها وعقولهم وسلوكهم وحياتهم ـ قادرة بفضل ما لديها من منظومة عقدية وتصورات فكرية وقيم خلقية على رد هجمات العولمة الثقافية الغربية التي تصر على إلغاء ثقافتها لتحل محلها دون أن تأبه بسياقها التاريخي والثقافي الخاص، مما يجعل هذه المجتمعات في حال من التحدي أمام هذا الطوفان الثقافي الغربي المندفع نحوها ليجرف ثقافتها، ويمسح هويتها، ويصادر ما لديها من خصوصيات.

لذا كان لزاماً على علماء الأمة ومفكريها من الغيورين على دينهم وأوطانهم وهم يرون ما يجري حالياً على المستوى الدولي من تهميش لثقافات الشعوب لتحل محلها ثقافة النظام الواحد، وهي ثقافة الغرب عن طريق الوسائل الحديثة المستخدمة من أجل إحداث الإحلال المطلوب، ومن هذه الثقافات ثقافتنا الإسلامية التي تتعرض كغيرها إلى محاولة مستعرة لإلغاء خصوصيتها ومسخ شخصيتها التي تستمدهما من انتمائها إلى الإسلام الحنيف ـ كان لزاماً على هؤلاء أن يعملوا على تعزيز هوية الوعي والولاء والانتماء للدين الإسلامي في نفوس المسلمين، وعلى تحقيق تكامل شخصية المسلم وتوازنها بين المادية والروحية، وغرس روح المحبة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والخشية من مخالفة أمرهما، وعلى توضيح قضايا العقيدة وأحكام الشريعة بما يعين على تفهم روح الإسلام والطرائق السوية لتناول الحياة، وتمييز الباطل من الحق والحرام من الحلال [٦٣، ص ١٦٢].

وأمام هذا التحدي الذي تتعرض له ثقافتنا لا بد في المملكة العربية السعودية وهي مستهدفة كغيرها من الدول في عالم يعيش تطوراً عاصفاً تهيمن عليه الدول المتقدمة وتعمل على فرض ثقافتها على الآخرين ـ من وضع استراتيجية واضحة وواقعية ومنظمة لمواجهة هذا التحدي بحيث تساعدها على حماية ذاتها، والحفاظ على هوية المجتمع الثقافية، وصيانتها من أي ضرر تغريبي يلحق بها، والسعي في تطوير هذه الثقافة مع التمسك بالثوابت ومراعاة المستجدات بحيث تصبح ثقافة منتجة؛ وليست مستهلكة وحسب[٢١، ص ٤٨].

إذا كانت الثقافة الإسلامية أكثر من غيرها مقاومة لتيار العولمة لما تمتلكه من مقومات الثبات، وفي مقدمتها الرصيد العقدي النقي ومصادر الوحي الصحيحة والماضي التاريخي المشرق والتراث العلمي المتكامل- فإن هذا لا يعني أن الثقافة الإسلامية ليست بحاجة إلى تكريس الجهود من أجل اتخاذ موقف حضاري من حركة العولمة العالمية في مسارها الإلزامي، يحافظ على شخصية الأمة من الذوبان في غيرها من الثقافات، وهذا يستلزم أن نفتح عقولنا، ونعطي الدراسة والبحث العلمي حقهما، وسنجد في تراثنا الخالد ما يجعلنا الأقوى في ظل المواجهة الواعية لهذا المد العارم.

ا ا ة

يمكن فيما يلي الإشارة إلى أهم ما خلص إليه هذا البحث:

١- المواطنة لها معنيان: الأول ــ معنى فطري يعتبرها نزعة غريزية نابعة من حب الإنسان لوطنه وشعوره بالانتماء إليه، والآخر ــ يعتبرها نزعة فكرية مذهبية، لها مبادئها العامة، وطقوسها السلوكية، تُزرع في نفوس الناس، ويُنشأ عليها ناشئة المجتمع، وتُحاكَم مواقف أتباعها عليها، ويُنظر إلى الآخرين من خلالها.

٢- الوطنية من المفاهيم الحديثة التي فرضت نفسها على خريطة الفكر الإنساني- وإن كانت ذات جذور عميقة في التاريخ، فهي بهذه الصفة الفلسفية عرفت في المجتمعات القديمة، ومن أشهر صورها وطنية اليونان، ثم وطنية الإمبراطورية الرومانية، وظهرت هذه النزعة من جديد مقترنة بقوميات محلية في أوروبا بعد الثورة الفرنسية لتحل محل النزعة الدينية المسيحية تدريجياً، وأصبحت من معطيات القرن التاسع عشر الميلادي الموجهة لكل نظم الدولة نحو خدمة هذه النزعة المذهبية.

٣- إذا كان الاتجاه المذهبي عمل على ربط معنى الوطنية بالأرض والوطن فإن الإسلام لا يتنكر لفطرة حب الوطن ؛ ولا يعده مناقضاً له، ذلك أن الإسلام نظر إليه على أنه ميل فطري راسخ في النفس، فنماه ولم يقيده بمضامين أي نزعة من النزعات ذات المنحى العنصري، بل ربط بينه وبين الدين، وعمل على إدماج البشرية بعضهم ببعض دون تمييز على أساس الحدود الجغرافية ؛ فمد بذلك مفهوم الوطن على امتداد العقيدة، ووسع مفهوم الوطنية لتكون انتماء فطرياً إلى الأرض، وموالاة دينية لعقيدة الإسلام ومبادئه وقيمه.

٤- إن الإسلام أوجد انسجاماً بين الدين والوطنية ؛ بحيث تكون الوطنية متشربة للإسلام، ويكون الوطن داراً له ــ وجعل للوطنية معنى واسعاً يتجاوز المعنى المحصور في الأرض، كما أن الإسلام جعل الوطنية حقاً من حقوق الشعوب، والمحافظة عليه حياة لها بين الأمم، فلا معنى لحياة أمة وهي تفقد حق استقلالها في أرضها وبلادها، وتعيش تحت هيمنة عدوها وحكمه ؛ فتلك أمة ميتة؛ وإن كانت في حكم الأحياء.

٥- تمثل الوطنية في المملكة العربية السعودية المعنى المنسجم مع الفطرة والإسلام ؛ إذ يعني مفهوم الانتماء إلى المملكة العربية السعودية معاني وقيماً عظيمة تستمدها من

موقعها، واحتضانها للحرمين الشريفين، وكونها مهبط الوحي وداراً للإسلام، ومأرزاً لأتباعه، كما يقتضي معنى الانتماء إلى هذا الوطن حماية أرضه، والنهوض برسالته التي هي رسالة الإسلام، والجهاد في سبيل الحفاظ على حرماته ومقدساته، والذب عن منجزاته الحضارية بشقيها المعنوية والمادية.

٦- برزت الوطنية منذ انطلاقتها في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي مقترنة بالقيم الليبرالية أو الحرية الفردية والديمقراطية، وتعتبر فرنسا أنصع مثال على هذا التلازم في أوروبا الحديثة، و ظهرت الوطنية في العالم العربي مقرونة بمشروع الدعوة إلى الوحدة العربية الذي كان من أهدافه مقاومة الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية، وتم التسويق لهذا المشروع عن طريق بناء ثقافة وطنية جديدة على المنحى القومي للثقافة السياسة الغربية المتجه إلى فصل الدين عن الدولة، وكانت ردة الفعل الأولى عليه من المفكرين الإسلاميين بإعلان التمسك بفكرة الخلافة الإسلامية، والتنادي إلى مشروع إعادتها من جديد ؛ مما أدى إلى تبلور اتجاه فكري مناهض لفكرة الوطنية العربية، يدعو إلى حماية الهوية الإسلامية، والدفاع عنها.

٧- إن الاختلاف في مفهوم المواطنة بين القوميين والإسلاميين نشأ عنه تباين في الثقافة التي تحدد هوية الوطن وصلته بغيره ؛ إلا أن الفريقين متفقان على أن الوطنية: (جمع بين الثقافة كهوية، وبين الثقافة كطريقة اتصال) إذ الثقافة عند الفريقين من أخص خصائص الإنسان، وإذا كان أي وطن بحاجة إلى تنمية شاملة وهادفة في كل مرافقه تستثمر كل إمكانياته وطاقاته فإن هذه التنمية لا بد أن تكون متلائمة مع ثقافته ومعطياته ومكونات مجتمعه.

٨- يعد الدين في الثقافة الإسلامية بمصادره الصحيحة الأساس الأول الذي تقوم عليه، وتأخذ منه مادتها العلمية والفكرية، وتستمد منه ذاتيتها ووجهتها وتصوراتها

وقوام فكرها، وتعتمد عليه في نقد التراث البشري ومواجهة التحديات التي تعترض سبيل المحافظة على شخصيتها من الذوبان في غيرها، وهو العاصم لها من الانحراف عن الطريق السوي، أو الاندثار مع الثقافات الضعيفة التي لم تستطع الصمود أمام متغيرات الحياة، أو الذوبان في غيرها من الثقافات الأخرى، كما أن الثقافة الإسلامية تضطلع بوظيفة مؤثرة ورائدة في بناء الهوية الوطنية وصياغتها وفق تعاليم الإسلام وقيمه السامية.

٩- الثقافة الإسلامية واقعية في نظرتها إلى الثقافات الأخرى، فهي تراها متولدة عن سنة الاختلاف بين بني البشر، وهي على وعي تام بهذه الثقافات، وهذا يعود إلى كونها ثقافة إنسانية تحترم الإنسان وتكرمه، وتحتفل بالمثل والعليا والوحدة الإنسانية، وتعنى بالاتصال بالشعوب ومحاورتها على أساس من العلم والحق، وتهتم بمخاطبة الثقافات الأخرى على أساس من الاحترام المتبادل، كما أنها تشاركها في حماية القيم وإرساء المبادئ الإنسانية، فهي ثقافة ذات نزعة إنسانية واضحة في كل جانب من جوانبها.

١٠- إذا كانت الثقافة الإسلامية تأخذ بمبدأ التفاهم مع الثقافات الأخرى والاحترام المتبادل بينها فإنها في الوقت نفسه لا تأخذ بفكرة التعايش مع الثقافات التي تستهدف كسر الحواجز المانعة من تأثيرها لغرض إحلال ثقافتها مكانها وتوطينها، لكنها لا تمانع من تفاعل الثقافات وتقاربها في الجوانب العلمية والتطبيقية والحضارية على أن يكون ذلك مبنياً على الاحترام المتبادل في جو سلمي بعيد عن الروح العدائية والتعصب ضد الثقافات الأخرى.

١١- الثقافة الإسلامية اعترفت بثقافات الأديان التي كانت موجودة في داخل الوطن الإسلامي، ومنحت أصحابها حرية الممارسة، واحترمت مقدساتهم ومصادرهم الدينية والفكرية، وحاورت أتباعها بالتي هي أحسن؛ دون إكراه يحمل أحداً على الانسلاخ من ثقافته أو مصادرة آرائه ؛ وإنما حوار منفتح ومقنع، يمكن الأمة من القيام

بواجب الشهادة على الناس التي جعلها الله وظيفة من وظائفها في علاقتها بغيرها، وتواصلها مع الآخرين، وهي تمتلك خطاباً وسطياً بعيداً عن الغلو والتفريط والتنفير في الأسلوب والمضمون.

١٢- إن توخي النزاهة والموضوعية والاحترام في قضايا الاختلاف والتعدد الثقافي والتمايز الحضاري والنظرة العادلة إلى كل الثقافات التي (تعطي كل ذي حق حقه) ــ سيعزز مستقبل الإنسانية بالوئام والتعايش الممكن، بدلاً من التنافس والصدام المهلك للشعوب المكرس للكراهية بينها، وسيتيح مجالاً رحباً للحوار بين الشعوب، وسيمنح الآراء الصائبة الظرف المناسب لإقناع الآخرين والانتفاع بها دون حاجة إلى إكراههم على قبولها، ومن ثم سيجعل ثقافتها ظاهرة على الثقافات الأخرى.

١٣- يعج الوطن الإسلامي على امتداده بالاتجاهات الفكرية والمذهبيات العقدية والفقهية، وإذا كان من جامع له فإنه يجتمع على قدر كبير من الثقافة الإسلامية العامة التي هي ثقافة كل أطيافه ونخبه ومذاهبه، ويفترقون في تفصيلاتها، وهذا الافتراق وبالأحرى الاختلاف يعود إلى مشارب ومدارس وقناعات شخصية وجمعية ونظرات إلى المستقبل، لها بعد تاريخي وعقدي وفقهي وقومي وواقعي، ولا يمكن أن يستثني مجتمع أي دولة من الدول الإسلامية من هذا الاختلاف أو التعدد الثقافي، وأمام هذه الثقافات المحلية هناك من يرى ضرورة الاعتراف بتعدد الثقافات المحلية وقبول الآخر تعايشاً وتحاوراً وتسامحاً؛ بحجة أن العصبيات والمذهبيات والطوائف لا يمكن أن تكون القاعدة أو المرجعية لأي مجتمع يواجه تحديات العصر الحديث، وهناك من يرى أن تبني ثقافة واحدة ترعى الوحدة في أركان الدين وقواعد الملة، وتقر الاختلاف في القضايا الفرعية دون الأصول هو الأولى حفظاً لوحدة الأمة وتماسكها واجتماعها.

١٤- إذا كانت الأمة مطالبة بأن تجتمع وتتحد على أصول الدين وأركانه العلمية والعملية العظام ومفاهيمه العامة ومقاصد الشريعة التي تشكل مضامين الثقافة الإسلامية ومعالمها الظاهرة فإنه لا يضرها أن تختلف في القضايا التي دونها من الفروع والجزئيات ؛ فإن الخلاف فيها سائغ وواسع لاختلاف الناس في الفهم والاستنتاج والاستنباط، واختلافهم في الرأي والنظر والإحاطة بعلوم الشريعة وأسرارها ومعانيها وظروف النصوص النازلة وأسبابها، ولنا في السلف الصالح أسوة حسنة، فقد كانت ثقافة الاختلاف وتعدد الثقافة شائعة وممارسة في عهدهم إلى درجة عالية، وأن التنوع الثقافي كان ظاهرة من الظواهر الفكرية التي لا يمكن إخفاؤها، وأن الثقافة العامة التي تمثل اتجاه جمهور العلماء، وعليها غالب الناس لم تكن الوحيدة في المجتمع ؛ وإنما هناك ثقافات محلية تختلف سعتها ويتباين عدد أتباعها هي ثقافة مدارس واتجاهات فكرية موجودة وقائمة، وأن العلاقة بينها كانت علاقة حوار وتغافر واعتذار؛ لا علاقة عداوة وبغض وكراهية، فعلماؤها كانوا يراعون الألفة والعصمة وأخوة الدين، وإن اختلفوا في القضايا العلمية العقدية.

١٥- ومن الناحية الواقعية نجحت العولمة الثقافية بوسائلها السياسية والمعلوماتية والاجتماعية في صياغة مفاهيم جديدة في بعض التصورات الثقافية والسياسية والاجتماعية، واستطاعت أن تحلها محل الثقافات الوطنية، ولا ريب أنها من هذه الناحية شكلت خطرا على الهوية الثقافية الوطنية للمجتمعات، وعلى الحس الوطني الرسمي المتولد عن خصوصية التجربة التاريخية للدول؛ إذ لا يستطيع أي مجتمع أن يبقى صامداً في زمن انهيار الحدود وتدفق الأفكار والنظم بشكل سريع ومتتابع عبر منافذ متعددة أمام هذه العولمة دون أن يتأثر بمفاهيمها الثقافية الجديدة؛ إلا أن ذلك ليس مطرداً أو حتمياً لا مناص منه؛ فإن المجتمعات التي تمتلك ثوابت عقدية وخلقية متجذرة في قلوب أفرادها

وعقولهم وسلوكهم وحياتهم ــ قادرة بفضل ما لديها من منظومة عقدية وتصورات فكرية وقيم خلقية على رد هجمات العولمة الثقافية الغربية، ومن هذه الثقافات ثقافتنا الإسلامية التي تتعرض كغيرها إلى محاولة مستعرة لإلغاء خصوصيتها ومسخ شخصيتها التي تستمدهما من انتمائها إلى الإسلام الحنيف؛ لذا كان لزاماً على علماء الأمة ومفكريها أن يعملوا على تعزيز هوية الوعي والولاء والانتماء للدين الإسلامي في نفوس المسلمين.

ا صادر وا راجع

[١] ابن منظور، جمال الدين الأنصاري، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، *لسان العرب*، دار المعارف.

[٢] الأزدي السجستاني، سليمان بن الأشعث، *سنن أبي داود*، راجعه، عبد الحميد، محمد محيي الدين، دار الفكر.

[٣] التهانوي، *كشاف اصطلاحات الفنون*، دار صار ببيروت.

[٤] الزنيدي، عبد الرحمن، مقالة: *الإسلام والوطنية ممتزجان*، مجلة المعرفة، الكتاب العاشر (الوطنية كائن هلامي) الطبعة الأولى عام ١٤٢١هـ.

[٥] عبود، عبد الغني، *ديناميات المجتمع الإسلامي*، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي بالقاهرة.

[٦] الجندي، أنور، *الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي*، دار الاعتصام بالقاهرة، (١٩٨٠م).

[٧] نادي الفكر الإسلامي بالرباط، لماذا نادي الفكر الإسلامي؟ (١٤٠٠هـ).

[٨] حسين، محمد محمد، *الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر*، الطبعة السادسة، مؤسسة الرسالة ببيروت، (١٤٠٣هـ).

[٩] الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، *الجامع الصحيح*، تحقيق عوض، إبراهيم عطوه، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

[١٠] العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، *الإصابة في تمييز الصحابة*، تحقيق الزيني، طه محمد، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.

[١١] العجلوني، إسماعيل، *كشف الخفاء ومزيل الإلباس*، دار التراث بالقاهرة.

[١٢] قطب، محمد، *مذاهب فكرية معاصرة* ، الطبعة الأولى، دار الشروق، (١٤٠٣هـ) .

[١٣] عمارة، محمد، مقالة: الروح الوطنية..، *مجلة المعرفة*، الكتاب العاشر *(الوطنية كائن هلامي)* الطبعة الأولى عام ١٤٢١هـ

[١٤] عزام، عبد الرحمن، *الرسالة الخالدة* ، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (١٣٦٥هـ) .

[١٥] الحقيل، سليمان، *الوطنية ومتطلباتها في ضوء تعاليم الإسلام* ، الطبعة الثانية، دار الشبل بالرياض (١٤١٣هـ).

[١٦] عمارة، محمد، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، طبعة بيروت ، (١٩٧٢م).

[١٧] القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، *صحيح مسلم*، تحقيق عبد الباقي، محمد فؤاد ، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء بالرياض، ١٤٠٠هـ.

[١٨] مزروعي، علي، مقالة: الوطنية العربية وفق القرن الحادي والعشرين، *مجلة المعرفة*، الكتاب العاشر (*الوطنية كائن هلامي*) الطبعة الأولى عام ١٤٢١هـ

[١٩] السيد، رضوان و برقاوي، أحمد، *المسألة الثقافية* ، الطبعة الأولى، دار الفكر بيروت، (١٤١٨م).

[٢٠] الجندي، أنور، *الإسلام والدعوات الهدامة*، دار الكتاب اللبناني.

[٢١] الغرايبة، فيصل محمود، بحث: الثقافة العربية في عصر الاتصالات والعولمة، ندوة إستراتيجية الثقافة والتنمية ودور كليات الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية في دول مجلس التعاون الخليجي المنعقدة بدولة الكويت من ٢٧ـ٢٩ مارس عام ٢٠٠٠م.

[٢٢] الحسني، محمد بلبشير، *في سبيل تأصيل الثقافة الإسلامية وتجديد الفكر* ، الطبعة الأولى، منشورات الفرقان، (٢٠٠٠م).

[٢٣] المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الإستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي ، منشورات المنظمة عام، (١٤٢٢هـ) .

[٢٤] نجيب، عمارة، الإنسان في ظل الأديان: *المعتقدات والأديان القديمة* ، مكتبة المعارف بالرياض، (١٤٠٠هـ).

[٢٥] الخطيب، عمر عودة، *لمحات في الثقافة الإسلامية* ، الطبعة الرابعة عشرة، مؤسسة الرسالة، (١٤١٩هـ).

[٢٦] القرضاوي، يوسف، *الخصائص العامة للإسلام* ، مكتبة وهبة، عام ١٣٩٧هـ .

[٢٧] الحليبي، أحمد بن عبد العزيز، *ثقافة الطفل المسلم مفهومها وأسس بنائها* ، الطبعة الأولى، دار الفضيلة بالرياض، (١٤١٩هـ).

[٢٨] الطريقي، عبد الله، وآخرون، *الثقافة الإسلامية تخصصاً*، عام ١٤١٧هـ .

[٢٩] العمري، نادية شريف، *أضواء على الثقافة الإسلامية* عام ١٤٠١هـ .

[٣٠] قطب، سيد، *خصائص التصور الإسلامي ومقوماته* ، دار الشروق ، عام ١٣٩٩هـ .

[٣١] سالم، محمد رشاد، *المدخل إلى الثقافة الإسلامية* عام ١٤٠٧هـ .

[٣٢] مرسي، محمد عبد العليم، *الثقافة والغزو الثقافي في دول الخليج العربية* عام ١٤١٥هـ .

[٣٣] القرضاوي، يوسف، *الثقافة العربية بين الأصالة والمعاصرة* ، مكتبة وهبة عام ١٤١٤هـ .

[٣٤] ابن خلدون، عبد الرحمن، *المقدمة* ، الطبعة الأولى، دار القلم ببيروت، عام ١٩٧٨هـ .

[٣٥] السهيلي، عبد الرحمن، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، *الروض الأنف في شرح السيرة النبوية* ، الطبعة الأولى، دار الكتب الحديثة عام ١٣٨٧هـ .

[٣٦] ابن القيم، *إعلام الموقعين*، دار الجيل ببيروت.

[٣٧] السباعي، مصطفى، *من روائع حضارتنا*، المكتب الإسلامي ببيروت.

[٣٨] مجموعة من الكتاب، ترجمة حافظ الجمالي، ويوسف مراد، *أصالة الثقافات ودورها في التفاهم الدولي*، تحت عنوان إنسانية الغد وتنوع الثقافات، ، دار الفكر العربي بالقاهرة عام ١٩٦٣م ، مطبوعات اليونسكو.

[٣٩] الطريقي، عبد الله، *الثقافة والعالم الآخر* ، دار الوطن عام ١٤١٥هـ .

[٤٠] العليان، عبد الله، مقالة: من صراع الحضارات إلى تعايشها، *مجلة العربي* العدد ٥٣٢/ مارس ٢٠٠٣م.

[٤١] ابن هشام، أبو محمد بن عبد الملك، *سيرة النبي صلى الله عليه وسلم*، تحقيق عبد الحميد، محمد محيي الدين، إدارات البحوث والإفتاء بالرياض.

[٤٢] الطبري، ابن جرير، *تاريخ الأمم والملوك*، طبعة بيروت.

[٤٣] الجعفي، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، *صحيح البخاري*، المكتبة الإسلامية بتركيا.

[٤٤] القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، دار إحياء التراث العربي عام ١٩٦٥م.

[٤٥] جاب الله، أحمد، ورقة: *انفتاح الخطاب الإسلامي ومتطلبات المرحلة المعاصرة*، مقدمة لمؤتمر كلية الشريعة بالكويت عام ١٤٢٥هـ.

[٤٦] الأنصاري، حمد جابر مقالة: نحن في علاقة مشوهة مع النفس، *مجلة العربي* العدد ٥١٨ يناير عام ٢٠٠٢م.

[٤٧] النبهان، محمد فاروق، بحث ظاهرة التطرف في المجتمعات الإسلامية أسبابها ووسائل علاجها، *مجلة دار الحديث الحسينية*، العدد /١٣ عام ١٤١٧هـ.

[٤٨] التركي، عبد الله، *أسباب اختلاف الفقهاء*، مكتبة الرياض الحديثة، عام ١٣٩٧هـ.

[٤٩] ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، *تفسير القرآن العظيم*، دار المعرفة، طبعة عام ١٣٨٨هـ.

[٥٠] الحنفي، ابن أبي العز، *شرح العقيدة الطحاوية* الطبعة التاسعة، المكتب الإسلامي، عام ١٤٠٨هـ.

[٥١] ابن الوزير، *إيثار الحق على الخلق*، دار الكتب العلمية بيروت.

[٥٢] ابن قاسم، عبد الرحمن، *مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية*، مؤسسة الرسالة ببيروت.

[٥٣] الشاطبي، أبو إسحاق، *الاعتصام*، دار المعرفة ببيروت، عام ١٤٠٢هـ.

[٥٤] الذهبي، محمد بن أحمد، *سير أعلام النبلاء*، الطبعة السابعة، مؤسسة الرسالة ببيروت عام ١٤١٠هـ.

[٥٥] القرضاوي، يوسف، *الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم*، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة عام ١٤١٢هـ.

[٥٦] المناوي، محمد عبد الرؤوف، *فيض القدير شرح الجامع الصغير*، دار الفكر.

[٥٧] النمري القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد البر، *جامع بيان العلم وفضله*، الطبعة الثانية، دار الكتب الإسلامية بمصر، عام ١٤٠٢هـ.

[٥٨] الدهلوي، ولي الله عبد الرحيم، *حجة الله البالغة*، دار التراث بالقاهرة.

[٥٩] ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، *الصفدية* عام ١٤٠٦هـ.

[٦٠] مسعد، محيي محمد، ظاهرة العولمة (*الأوهام والحقائق*)، الطبعة الأولى عام ١٩٩م.

[٦١] المسيري، عبد الوهاب، مقالة: عولمة الالتفات بدلاً من المواجهة، *مجلة المعرفة*، الكتاب العاشر (الوطنية كائن هلامي) الطبعة الأولى عام ١٤٢١هـ.

[٦٢] الزنيدي، عبد الرحمن، *العولمة الغربية والصحوة الإسلامية*، دار إشبيليا، الطبعة الأولى عام ١٤٢١هـ،.

[٦٣] بدوي، صال جمال، تعقيب على بحث: كيفية تحقيق الهوية الإسلامية للطالب الجامعي الخليجي، ندوة استراتيجية الثقافة والتنمية المنعقدة بدولة الكويت من ٢٧ـ٢٩ مارس عام ٢٠٠٠م.

Nationalism and Multiculturalism

Dr. Ahmed bin Abdulaziz A-L-Huleibi
Associate Professor, Department of Islamic Studies
King Faisal University

Abstracts. Is multiculturalism within the bounds of one country attainable? The present paper attempts to answer this question from the Islamic point of view which is based on the Holy Quran in order to resolve the controversy over the issue in question by resorting to Almighty Allah and his messenger (peace and blessings be upon him). This issue has been handled with a measure of comprehensiveness, reality and wisdom which is in line with the concern of Islam for the unity of the nation, and the attunement of its people's hearts, on the one hand, and the question of the danger of conflict, including cultural conflict, which leads to hostility and disunity, on the other.

The research paper deals with the following issues: the meaning of homeland, the concept of patriotism in Islam, patriotism and culture, the role of Islamic culture in building the cultural identity of homeland, cultural identity and multiculturalism, multiculturalism in the Muslim homeland, national culture and globalization.